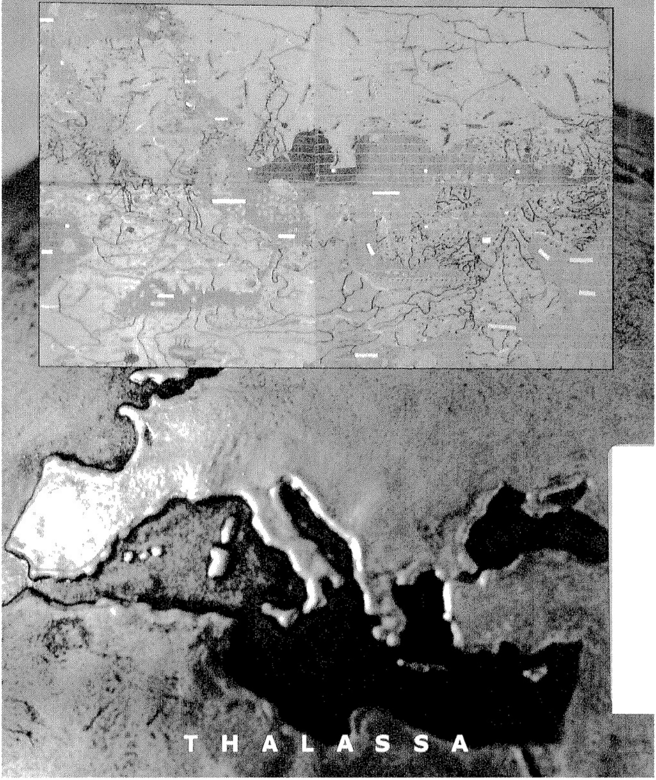
تصورات البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط اليوناني

رانيا بوليكاندريوتي
تاكيس تيودوروبولوس



THALASSA

GIFTS 2005

Konrad Adenauer Foundation

Jordan

تصورات البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط اليوناني

رانيا بوليكاندريوتي

تاكيس تيودوروبولوس

حروب
مَعين التاريخ
لأهل التارِ

تصورات البحر الأبيض المتوسط

برنامج أبحاث بإشراف البيت المتوسطي لعلوم الإنسان

منسق البرنامج : فرانسوا سيينو
سكرتيرة التحرير : جيزيل سايماندي
منسقة النسخة العربية : ماري تريز زهر

رعى البرنامج كل من :
الاتحاد الأوروبي
وزارة الخارجية الفرنسية
المؤسسة الأوروبية للثقافة
مؤسسة رينيه سايدو للعالم المتوسطي
منطقة بروفانس آلب كوت دازور
مقاطعة بوش دي رون

شكر خاص لمؤسسة الملك عبد العزيز في الدار البيضاء
وللجامعة اللبنانية في بيروت لاستقبالهما

الغلاف :
خارطة محمد الإدريسي وهو جغرافي عربي توفي سنة ١١٦٦ .

تم نشر هذه المجموعة أولا باللغة الفرنسية في
دار ميزونوف إي لاروز Maisonneuve & Larose
أما الترجمة إلى العربية فهي بالتعاون مع
مؤسسة كونراد أديناور وتحت إشرافها

Konrad
-Adenauer-
Stiftung

تـــصـــوّرات
البـحـر الأبـيـض المـتـوسط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

المتوسّط اليوناني

رانيا بوليكاندريوتي

تاكيس تيودوروبولوس

T H A L A S S A

رانيا بوليكاندريوتي / تاكيس تيودوروبولوس

المتوسط اليوناني – بيروت : منشورات تالاسا ٢٠٠٣

Printed in Lebanon

DYNAMIC GRAPHIC
ISBN: 9953-422-42-7

رانيا بوليكاندريوتي

متوسّط بحر إيجه

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

إنّ البحثَ عن تصورات المتوسّط في الخطاب المدوَّن، سواء كان أدبياً أو غير أدبي – الخطاب الجغرافي أو السياسي أو سواهما – في كلّ بلد بعينه، يقوم على فرضية أولى : وهي أنّ المجال الجغرافي الذي يحدّده البحر الداخلي يشكّل أيضاً بناءً ذهنياً ذا دلالات ثقافية وتاريخية. فيكون المطلوب إذاً تبيان المكوّنات الخاصّة لهذا البناء الذهني، في النتاج المكتوب لكلّ بلدٍ، من زاويتي نظرٍ تعاقبية وتزامنية، التي من شأنها أن تظهر، في خطوةٍ لاحقة، أي في السياق التركيبي، نقاط تقاطعها أو تباينها.

بيد أنّه إذا كان من البديهي أن يتّسمَ بلدٌ ما بالمتوسطية جرّاء موقعه الجغرافي، فليسَ من اليسير الإحاطة بهويته الثقافية التي يحدّدها هذا الموقع ذاته، وتعريفها. فالحقيقة أن المطلوب هو تبيان وإظهار هذه الأواليات الخاصّة والتي، من خلالها، يكتسب المصطلح الجغرافي للمتوسّطِ طابعاً ثقافياً مختلفاً في كلّ بلد، والنحو الذي اندرج فيه هذا الموقع الجغرافي في التاريخ والدين والفنّ حتّى غدا رمزاً. إنّ الهوية أو الوعي المتوسطي، إذا وُجِدَ فعلاً، كما يتبدّى في كلّ بلدٍ على نحوٍ خاص، وفي هذه الحالة، كما يتبدّى في اليونان، يجب أن يُنظَر إليه أيضاً من زاوية خصوصياته التاريخية. مما لا شكّ فيه أن تطور تاريخ اليونان ليس منفصلاً البتّة عن موقع البلد الجغرافي الذي يقرّبه من إيطاليا المنتمية إلى الغرب الأوروبي بقدر ما يقرّبه من المتوسّط الشرقي، أي تركيا وخاصّةً القسطنطينية، وسواحل آسيا الصغرى وقبرص ومصر، وخاصّةً القاهرة والإسكندرية. ويقيم الشتات اليوناني في المتوسّط الشرقي كما التطلعات الأوروبية لليونانيين الذين يلتفتون نحو الغرب، شبكاتٍ ثقافية لها أهميتها القصوى.

إنّ مصطلح المتوسّط نفسه يطرح، في حدّ ذاته، مشكلةَ معنى باعتبار أنه قد يعني، في وقتٍ معاً، البحر الأبيض المتوسّط والبلدان المتوسطية. ولن يتسع معنى المتوسّط الفعلي ليشمل

المناطق الداخلية من البلدان المحاذية له، إلاّ مع أعمال فرنان بروديل. ففي هذا التصوّر يغدو المتوسّط دالاً على فكرةٍ كلّ. كلّ متنوّع بالتأكيد، باعتبار أنه يجمع بين الحضارات المتوسطية الكبرى الثلاث (اللاتينية، والإسلام، والعالم اليوناني)، في علاقاتها المركّبة. لقد قامت الحضارات الثلاث على اختلافاتٍ أولاً دينية، وتالياً، ثقافية. ولذلك فإنّ المصطلح يتخطّى، منذ البداية، الحدود الثقافية، ويرقى إلى مستوى التأليف بين الخصوصيات أو سمات التقاطع.

إلى جانب النصوص الجغرافية والتاريخية، توفّر النصوص الأدبية شهادةً قادرة على التعبير عن متخيّلٍ جمعي، شهادة وعي وطني قد تكون معبّرةً عن وعيٍ وعن حساسيةٍ متوسطيين. فهل المتوسّط حاضر في الخطاب الأدبي، في الرمزية الشعرية لليونان ؟ إنّ السؤال يكمن في التثبّت مما إذا كان المتوسّط قد لعبَ دوراً ما حقاً في هذا السياق الطويل لصوغ هويةٍ كما يتبدّى في نصوص كلّ حقبةٍ على حدة.

للوهلة الأولى قد يأتي الجواب سلبياً. ومع ذلك فإنّ المتوسّط موجود، وربّما كان وجوده هذا من البداهة بحيث لا تبرز أي حاجةٍ إلى الحديث عنه.

تنبغي الإشارة إلى أن العبارة اليونانية (ميديتيرانيوس) التي تشير اليوم إلى البحر المتوسّط، لم تكن في الأصل اسمَ علَم، بل كانت تدلّ، كاسمٍ لغير علم، على الأقل حتّى مطلع القرن التاسع عشر، على الطابع القاري لبلدٍ ما (١). فعلى الضدّ من ذلك، كان البحر المتوسّط يحمل أحد الاسمين القديمين، فإمّا أن يطلق عليه اسم « بحر»، الذي كان يشير أيضاً إلى البحر الأسود، وإمّا «البحر الداخلي» أو «بحرنا» (٢). تظهر مادّة «ميديترانوس، ميديتيرانيو»، للمرّة الأولى في قاموس يوناني يصدر في البندقية عام ١٦٥٩ (٣) والواضح أنها تدلّ على إسمٍ لغير علم لا على اسم علم. ويعمد كريسانثوس نوتاراس، في مؤلفه «مقدّمة للجغرافيا»، وهو مؤلف ذائعٌ آنذاك

صدر للمرة الأولى عام ١٧١٦ [٤]، إلى تعريف المفردة بوصفها دالّةً على مجال بحري يقع بين أوروبا وآسيا وإفريقيا، وذلك، على الأرجح، من خلال ترجمته مؤلفاتٍ جغرافية أجنبية. ولم تدخل المفردة إلى ثبتِ المصطلحات الجغرافية اليونانية إلاّ في العام ١٧٢٨، في مؤلّف الجغرافي ميليتيوس [٥]. مستنداً إلى سترابون والتراث القديم، يعرّف ميليتيوس البحر الأبيض المتوسّط بوصفه بحراً داخلياً بالتعارض مع الأوقيانس الذي يشكّل خليجه الثاني وكحدّ طبيعيّ لأوروبا.

يؤشر غياب مفردة محدّدة للتدليل على المجال المتوسطي بمجمله على غيابِ معنى محدّد تماماً بوصفه متوسطياً، على الأقلّ حتّى مطلع القرن الثامن عشر. ويغدو هذا الغياب أوضح دلالة إذا اعتبرنا أن مسألة الهوية الوطنية قد طرحت، وبسبب خصوصيات التاريخ الهليني الجديد، على نحوٍ حاسم طيلة الأزمنة الحديثة. والحال أن البحث عن هذه الهوية قد اتجه في الأغلب، نحو البلقان الأرثوذكسية أو نحو أوروبا المستنيرة التي عاودت اكتشاف العصور القديمة، أكثر مما اتجهت نحو المتوسّط المشرّع على بلدان الكافرين.

على الأخص، إثر سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين، فقد اليونانيون المضطهدون كلَّ سلطان. مع ذلك، فإنّ العثمانيين، ولأسباب متعدّدة، احترموا الحرية الدينية للشعوب التي أخضعوها. وبقيت بطريركية القسطنطينية، خلال القرون الثلاثة الأولى، في الأقلّ، التي أعقبت السيطرة على المدينة، مركز الحياة الدينية والروحية بامتياز لكافة الشعوب الأرثوذكسية الخاضعة، موفرة لها بذلك العناصر المكوّنة لذاكرة جمعية. فقد كان يوناني القرن السابع عشر أو الثامن عشر، القابع تحت الاحتلال العثماني، يرى أن الشعوب الأرثوذكسية البلقانية كافة تنتمي إلى الجماعة نفسها وتضمن له هويته الدينية على الأقلّ إن لم تضمن له هويته الوطنية [٦]، وهو أمر عبّرت عنه أيضاً نصوص ذلك العصر.

ففي مناخ روحية مثل هذه نقرأ، مثلاً، «حديقة النِّعَم» للراهب قسطنطين دابونتيس، المدوّن عام ١٧٦٨ ، والذي نشر للمرة الأولى عام ١٨٨١ بعناية إميل لوغران [٧]. إنّه نصّ سرديّ هاذٍ له طابع السيرة الذاتية المنظومة شعراً، وفيه يصف دابونتيس رحلاته وجولاته في بلدان البلقان وبحر إيجه بين ١٧٥٦ و١٧٦٥. فلدى دابونتيس الذي اعتبر تارةً شاعر القرن الثامن عشر بامتياز [٨]، وتارةً كمؤلّفِ مسلٍّ خفيف [٩]، يبدو أنّ المجال الجزيري لبحرِ مشرق بالأنوار هو بحر إيجه هو الذي ينبثق منه العالم الأرثوذكسي البلقاني. ذلك أن قسطنطين دابونتيس المتحدّر من جزيرة سكوبيلوس، يلخّص الشعور بالوطن بمسقط رأسه، فيما يعبّر عن صلات قرابة ثقافية بديهية بالمجال الأوروبي الجنوبي الشرقي بأسره، وبصرف النظر عن الفروق السياسية أو الوطنية [١٠]. ومع ذلك فإنّ المتوسّط بوصفه مجالاً جغرافياً محدداً يبقى غائباً عن مؤلفه ؛ فهو موجود كمشهد طبيعيّ، عبر شجرة الزيتون أو الكرمة، وبوصفه جمالية حسية أو استمتاعاً بالحياة الطبيعية، حيثما يأتي دابونتيس على ذكرِ جزر بحر إيجه، كساموس أو سكوبيلوس. إنه، في مؤلفه، يعبّر بوضوح عن فهمٍ جديد للحياة الفردية وإدراك المجال، للذّة الحواس، من دون أن يبتعد، مع ذلك، عن المسلمات الكنسية الأرثوذكسية. إنه يجيز لنفسه أن يتأمّل بخُيَلاء وأن يعلي من شأن المنظر الطبيعي لجذوره، ذلك المشهد المتوسطي، الفردوس الأرضي [١١]، وحده الذي يمكن أن يقارَن بمولدوفيا وفالاشيا [١٢].

فتلك، بأية حال، هي لحظة انبعاثٍ روحيّ تدرّجي، ترافقت مع ازدياد عدد المدارس وإرادةٍ عبّرت من خلالها فئة مستنيرة من الإكليروس عن رغبتها في نشر التعليم ليشمل الشرائح الاجتماعية كافّة. وكان الوعي الديني للشعب اليوناني بوصفه أرثوذكسياً يتراجع تدريجاً لصالح الوعي الوطني، وروحية الأمّة. ففي عصر الأنوار أدّى نجاح الحفريات التي قام بها وينكلمان في إيطاليا (١٧٣٨) إلى بعثِ العالم القديم في فكرِ المعاصرين، وأسهم في نهضة الدراسات الكلاسيكية في الغرب [١٣]. فكانَ أن ولّد التناقض

بين المجد القديم وبين الصورة المعاصرة لليونان في واقعها اليومي، مشاعر القنوط واليأس لدى الرحالة الأجانب الذين راحوا يجوبون البلاد متلمّسين صلةً بالمنابع القديمة للحضارة الأوروبية [١٤]. وصار البحث عن هوية خاصّة لليونانيين الحديثين حاجةً ملحّة لتعريف الذات.

«الجغرافيا الحديثة»، وهو المؤلّف الذي وضعه دانيال فليبيديس وغريغوار كونستنداس [١٥]، الإكليريكيان المستنيران اللذان تلقيا علومهما في إمارات الدانوب، قد دُوِّنَ بذهنية الأنوار الأوروبية. فهو يتألّف، في جزءٍ يسيرٍ منه، من الترجمات. لقد تأثّر المؤلفان بمقالات «الموسوعة المنهجية» لبانكوك (Panckoucke) [١٦] و«الموسوعة الحديثة» لنيكول ديلاكروا (Nicole de La Croix) [١٧]، كما اعتمدا على النظريات التي كانت معاصرة لهما والتي ترى في الجغرافيا سنداً للتاريخ فيما معرفة المجال ترتبط بمعرفة الناس الذين يقطنونه [١٨]. يدعم فيليبيديس وكونستنداس الفكرة القائلة إنّ يقظة الوعي الوطني يجب أن تتأسّس على معرفة الذات، أي على المعرفة الجيّدة للبلد الذي نقطنه. فوحدهما الوصف الكامل والدقيق لكلّ موضعٍ خاص وذكر الظروف الثقافية والسياسية والاقتصادية التي تنتظم حياة سكّانه، من شأنهما أن يشكلا الطابع العام الذي يتسم به البلد، وأن يؤديا إلى امتلاك الوعي الوطني [١٩]. فالأمر هنا يتعلّق بالدرب الذي يفضي، عبر التجربة الشخصية، إلى تشكّل صورة جمعية. ذلك أن المتوسّط، وهو الحدّ الطبيعي لأوروبا باتجاه الجنوب، سواء كان أوروبياً أو آسيوياً، يغمر البلد الذي نقطنه، ولذلك من واجبنا أن نسعى لمعرفته على نحوٍ أفضل. وتقسيمه الداخلي يعكس، بالضبط، هذه الحاجة لأن يعرف، بلداً بلداً، على نحوٍ أفضل [٢٠]. وهو إذ يرتبط بالجزر التي يحتضنها، يُعتَلمُ المتوسّطُ بالمستعمرات اليونانية القديمة، العديدة، التي جعلت منه موضعاً للتبادل اللغوي والثقافي والمالي [٢١]. وتكاد اليونان، بفعل موقعها الجغرافي بين أوروبا وآسيا وإفريقيا، أي في مركز العالم القديم، أن تتماهى مع تعريف

المتوسّط نفسه، في حين أنه كان بمقدورها، ومن دون عناء، بفعل قربها من الشعوب المجاورة الأخرى ويفضل منتوجاتها اللذيذة، أن تغدو البلد بامتيازٍ في العالم أجمع [٢٢].

إنّ النزعة الأنوية اليونانية الواضحة في هذا العمل لا تتعارض مع هذا الانفتاح الجديد على البحر، لأنها في الحقيقة تتعلّق بتبيان كلّ ما وسم أمجاد اليونان القديمة، كالتوسّع الاستعماري والثقافي واللغوي. وتتعلّق بحجّة سياسية سوف تبقى حيّةً، بأية حال، طوال القرن التاسع عشر ومفادها أن الموقع الجغرافي المركزي لليونان في حوض المتوسّط – والجدير بالذكر هنا أنه يعتبر مركزياً من دون أن يكون كذلك حقاً –، موطن المجد الاستعماري والثقافي في العصور القديمة، يسهم في ترسيخ الوعي الوطني. ولا بدّ أن توسيع الحدود الثقافية للبلد، قبل حرب الاستقلال بعقدين من الزمن، قد تمّ لغاياتٍ سياسية ووطنية. وبذلك يكون الحسّ بالرابطة الأرثوذكسية قد تراجع تدريجاً أمام وعي هويةٍ وطنية.

جاءت حرب الاستقلال لتوقف، لبعض الوقت، كلّ أعمال النشر والطباعة. ومع ذلك بقي الاهتمام بالتعليم على أشدّه لأنه جعلَ أساساً لاحتمال بعث الأمّة. وهذا ما يفسّر، بأية حال، النموّ التدرجي في المدارس لتعليم الجغرافيا والتاريخ، منذ سنوات ما قبل الثورة وطيلة القرن التاسع عشر. وغدت الكتب المدرسية لمادة الجغرافيا معبّرةً عن الإيديولوجية الرسمية وعن تطور هذه الإيديولوجية. ومع ذلك، تجدر الإشارة هنا إلى أن أغلب هذه النصوص العائدة إلى الفترة ما بين ١٨٣٤ و١٨٨٠، هي ترجماتٌ عن لغاتٍ أجنبية [٢٣]. ذلك أن ترسيخ الوعي الوطني والتعميم المنهجي لثقافة حبّ الوطن وماضيه القديم، كانا يتطلبان تدريس الجغرافيا التاريخية. سترابون وبوزانياس هما المنهلان الممتازان لوصف «البلاد اليونانية»، أي البلاد التي لا تنتمي إلى المملكة اليونانية المعاصرة، ولكن التي اتضح أن معرفتها ضرورية لمعرفة اليونان. في الوقت نفسه، واستلهاماً لجغرافيي عصر

الأنوار، أمثال دانيال فيليبيديس وغريغوار كونستنداس، غدا تدريس هذه اليونان الحديثة واجباً ملزماً وقد يتمّ بموازاة التذكير بماضيها القديم.

بحسب هذه الترسيمة الإيديولوجية للنصف الأول من القرن التاسع عشر، يؤتى على ذكر المتوسّط بوصفه مجالاً لنشاط الأسلاف المجيدين الذين تمكّنوا من تطوير قوتهم وثقافتهم.

«وسط ساحة معارك الأمم، الشاسعة الصاخبة هذه، على سرّة البحر الداخلي للأنصاب، على الطريق الواسعة لكلّ الأعراق وكلّ اللغات، بقرب مركز السوق العالمية، هناك تقع البؤرة الأروع للعالم كلّه، اليونان التي كانت، فيما مضى، مجيدةً وذات شأن، وطن الآلهة والأبطال.» [٢٤].

كان تدريس الجغرافية التاريخية يخدم، إذاً، أغراضاً وطنية. وكان ينبغي أن تستخدم المقارنة بين الحدود المتسعة للماضي السحيق وبين الحدود الضيقة لفترة ما بعد الثورة، ذريعةً ومثالاً لانبعاث العبقرية الهلينية ومجدها. وبذلك ترقى اليونان الحديثة إلى مستوى تلكَ

«التي كانت في العصور القديمة والمدهشة، منتشرةً، خلال العصور الذهبية لتاريخها بأهلها ومستعمراتها، على طول سواحل المتوسّط والبحر المضياف (الأسود)، تلك اليونان التي أقامت عرشها، في زمن الإسكندر الكبير وبابل التي طبّقت شهرتها الآفاق، على ضفاف النيل، التي أنجبت نوابغَ العصور القديمة، التي مجّدت الحاضرات العامرة بآلاف السكان، التي شيّدت القصور وأضاءت المنارات للملاّحين.» [٢٥]

كانت الجغرافيا تعتبر، بأية حالٍ، هي «منارة التاريخ» [٢٦]. وعليه فإنّ الاهتمام المقرون بالتدريسِ في المدارس، بالمناطق المأهولة بالهلّينيين والخاضعة للسيطرة العثمانية إنما تبرز المصالح الوطنية والسياسية لليونان. إذ تدرّس جغرافية اليونان، بحسب مناهج التعليم الرسمية في منتصف القرن التاسع عشر،

بالترافقِ مع تدريس جغرافية تركيا الأوروبية الذي كان يوصف أحياناً بالموقت، لأسبابٍ سياسية واضحة. وعلى هذا النحو كان التلاميذ يتلقنون، في شرحٍ توضيحي يتناول حدود «تركيا الأوروبية الموقتة»، بأنّ :

> «تركيا الأوروبية بمجملها، كما جزء من تركيا الآسيوية هي لليونانيين الذين يتعيّن عليهم، وبأي ثمن كان، أن يستردوا هذه المناطق الجميلة وميراثها وأن يحرّروا أشقاءهم اليونانيين المسيحيين الذين يقطنون تركيا بأسرها.» (٢٧)

لم تكن الكتب المدرسية لتعبّر، بأية حال، إلاّ عن الإيديولوجية الرسمية وما كان يسمّى «الفكرة الكبرى»، أي الحلم في تحرير الأشقاء المضطهدين. وهو حلم واقعي ولاواقعي في آن معاً، لأنّ في مبتغاه ينبغي أن يتمّ تحرير القسطنطينية، العاصمة البيزنطية من العثمانيين. ويبدو أن مصدر الفكرة الكبرى هو خطاب سياسي يعود إلى العام ١٨٤٤، ألقي لمناسبة تشكيل الدستور اليوناني الجديد، من قبل رئيس الوزراء إيوانيس كوليتيس (Ioannis Kolettis) :

> «أما بشأن موقعها الجغرافي فاليونان هي مركز أوروبا؛ منتصبةً، الشرق إلى يمينها والغرب إلى يسارها، مقدّرٌ لها أن تنير الغربَ بسقوطها والشرقَ بانبعاثها. قدرها الأول أنجزه أسلافنا، أما الثاني فهو مناطٌ بنا.» (٢٨)

نحو أواخر القرن التاسع عشر، شُرِعَ بتأليف الكتب المدرسية بدلَ ترجمتها عن أصولٍ أجنبية، وروعي في تأليفها أن تكون أكثر ملاءمةً للتعريف بالبلد وترسيخ حبّ الوطن والكرامة الوطنية. وعندئذٍ اكتسبت شبه الجزيرة البلقانية، في الكتب التعليمية، اسم «شبه الجزيرة اليونانية». ما يعنينا في دراستنا هذه هو الاقتناع الذي بات أكثر فأكثر شيوعاً في أواخر القرن التاسع عشر بأنّ الطابع الطبيعي والمناخي لبلدٍ ما يؤثّر على تطوره التاريخي ويسهم في تشكيلِ طابعٍ وطني. هكذا يمكن تفسير خصوصيات

التاريخ اليوناني، القديم أو الحديث، بالخصوصية الطبيعية للأرض وبالظروف المناخية. مع أن الطابع المتوسطي للبلد لم يؤخذ بعين الاعتبار بقدر ما التفتَ إلى تكوينه الطبيعي الجبلي الذي لم يتح الوحدة الوطنية بل تسبّب، على الضدّ من ذلك، بالشقاق.

كان تقسيم المعارف بحسب السنوات المدرسية في المناهج التعليمية الرسمية يتبع، في القرن التاسع عشر، المنطق نفسه الذي يُظهر ما يُولى من الأهمية للمجالات التي يجري تدريسها والغرض السياسي منها : هناك أولاً طوبوغرافيا اليونان التي لا تزال تدرّس وفق صلتها بتركيا الأوروبية وشبه الجزيرة اليونانية المزعومة. ثمّ هناك أوروبا التي تشكّل مادة دراسية لسنة منهجية كاملة ؛ وأخيراً، يتمّ تدريس العالم بأسره، أي آسيا وإفريقيا وأميركا (٢٩). وبذلك يكون واضحاً بأن الأولوية تعطى للالتفات إلى الغرب وتركيا الأوروبية بوصفهما بؤرتي الاهتمام السياسي والتاريخي. أمّا المتوسّط، كمجالٍ جغرافي، فلا يشكّل البتّة وحدةً لمادة تعليمية.

إنّ الحاجة إلى معرفةٍ أفضل بالبلد كما يتبدّى من خلال الخطاب الرسمي، تظهر أيضاً في نصوصٍ أخرى من القرن التاسع عشر، كنصوص أدب الرحلات أو النثر الأدبي. ويمكن القول، بصورة عامّة، إنّ السمة الغالبة على سرديات أدب الرحلات اليونانية في القرن التاسع عشر هي طابعها التعليمي والموسوعي، وبذلك لا تختلف كثيراً عن النصوص الجغرافية. إذ ينصرف الرحّالة من اليونانيين إلى وصف هذه الأرض المجهولة التي هي اليونان (٣٠)، مبرزين، على نحو خاص، اليونان التي لا تزال خاضعةً للعثمانيين (٣١). فتبقى النظرة نائيةً عن البحر وعن كلّ ما قد يوحي به. ذلك أن الرمزية البحرية أو حساسية الرحالة، وهما وحدهما القادرتان على إنجاز ذلك التجاوز للدور النفعي للنصوص والانفتاح على ما وراء التخوم البحرية، لم تكونا قد ظهرتا بعد. ووفق المنطق نفسه فإنّ ما غلب على النثر الأدبي هو، بصفة خاصة، ذلك الاهتمام بالتقاليد الشعبية الذي وسَمَ،

بالتأكيد، وعبر وصف المجتمعات الجزيرية، تلك الصلة التي يقيمها البلد بالبحر، غير أن رؤيته لا تتعدّى البتّة السواحل المألوفة من قبل الصيادين. إنّ ناثري أواخر القرن التاسع عشر قد انكبّوا خصوصاً على وصف العادات معبّرين بذلك عن نهضة وعن ردّ فعلٍ ضدّ النزعة الرومنطيقية التي سادت الأعوام السابقة، وضدّ تبنّي الموضوعات التاريخية أيضاً. وعلى خطى البروفسور نيكولاوس بوليتيس الذي كان منكباً على دراسة حياة اليونانيين الحديثين [٣٢] لكي يبرهن على تحدّرهم المباشر من اليونانيين القدماء، غاص هؤلاء الناثرون في ذاكراتهم الخاصّة لكي يستنبطوا منها الصورة الثقافية والاجتماعية، والتقاليد الشعبية لمسقط رأسهم. والحقيقة أن بوليتيس هو الذي حثّ مجلة Estia على تنظيم مسابقة، في العام ١٨٨٣، لتأليف قصص قصيرة ينبغي أن تتمحور موضوعاتها حول حياة الهلينيين وتقاليدهم [٣٣]، مجسّدةً بذلك نزعةً كانت ماثلةً بقوة [٣٤]. في مثل هذا السياق يندرج التذكير بموضوعاتٍ خاصّة بالعالم البحري في حياته اليومية الأشدّ شظفاً أكثر منها موضوعات متصلة بالمتوسّط.

كان ألكسندر بابادیامنتيس، المتحدّر من جزيرة سكياتوس، هو من أدخل موضوعة البحر إلى النثر.

> «في اليونان، يمتلك الطفل الحسّاس، المترعرع بجوار البحر، حاسّة سمعٍ ذات ثلاثة أبعاد. بالبعد الأول، يستشعر الريح وتململ الأمواج؛ بالثاني، يستمع إلى اللغة اليونانية بتكوينها الصواتي (الفونولوجي) الأصلي؛ وبالثالث، يستشعر عالم الحواس، منذ زمن إيونيا إلى اليوم.»

هذا ما كتبه الشاعر أوديسياس أليتيس [٣٥] لمناسبة قراءة جديدة لبابادیامنتيس في وقتٍ اكتسبت فيه معاودة اكتشاف البحر أبعاداً رمزيةً جديدة. ومع ذلك، فإننا نجد، إذا قصرنا النظر على نهايات القرن التاسع عشر تلك، أنّ الطبيعة، وخاصّةً البحر، هي أشبه بشخصيّة لدى بابادیامنتيس فلا تشكّل سوى إطارٍ

ديناميكيّ للعمل :

> «إنها تذكّر البطل بحنق، وأحياناً بحماسة، بضرورة أن يتماهى معها؛ وتبقى لامبالية ببذخٍ أو تشارك خفيةً. ومع ذلك، هي، في المقام الأول، القوة الخفية، التي تثور غضباً، وتهدّد، وتنفلت من عقالها، وتحطّم كيما تظهر للإنسان ضعفه وضآلته.» (٣٦)

لنذكر أيضاً اسم أندرياس كاركافيتساس الذي غدا البحر الإطار شبه الوحيد لنصوصه السردية، طالما أن شخصياته كلّها مرتبطة، على نحوٍ ما، به : صيادون، بحّارة، صيادو إسْفَنْج، نساؤهم، أمهاتهم، أولادهم، في مواجهة بحرٍ ودودٍ أحياناً، وخطرٍ أحياناً، وواعدٍ في أحايين أخرى.

إذا كنا نسعى، على هذا النحو، لتبيان تصورات المتوسّط في هذا النوع من النصوص السردية، فقد يتعيّن علينا أن نقصرها على إطار الحياة الجزيرية المحدّدة المواضع، حياة بحارة وصيادين، حياة قاسية تُخاض ضدّ كلّ المخاطر، حياة انتظار العودة المرتبطة بأهواء البحر. ربّما أمكننا الكلام على التصورات المتوسطية باعتبار أن هذه التصورات البحرية قائمة في أماكن جغرافية محدّدة ومنتمية إلى الحوض المتوسّطي. إنها تصورات يونانية أنوية النزعة، جوهرياً، تقف عند ضفاف البحر والعالم الجزيري المصغّر. وتتركّز هذه النصوص على وصف العادات. إنها تصف الإنسان وسط المنظر الطبيعي، الإنسان المرتهن للطبيعة من دون أن يعمد هذا الوصف إلى تجاوز ثقافي أو ثقافي تعدّدي للحدود، أو إلى صوغ إشكالية أكثر عمومية مرتكزة على الموقع الجغرافي للبلد.

كذلك الأمر، غالباً ما يستلهم الإبداع الأدبي، منذ مطلع القرن التاسع عشر، موضوعة البحر الذي لا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة اليومية لهذا الشعب البحري وحسب، بل يرتبط أيضاً بماضيه التاريخي القريب أو البعيد. ففي ظلّ هوميروس (٣٧) يغدو البحر

الإيوني والبحر الكريتي وبحر إيجه إطاراً غامضاً وآسراً، إما مرتبطاً بمسقط الرأس، وإما جوهراً مجرّداً. ومقارنةً بأحوال النفس السيكولوجية، المرتبطة بالحياة والموت، يُقدِّم البحر نفسه بوصفه أداة غنية للتعبير الانفعالي [٣٨]. مع ذلك، فهو، المشحون بالتراث الميتولوجي [٣٩] بقدر ما هو مكان أيروسيّ [٤٠]، يحمل الذاكرة التي لا تزال حيّة لحرب الاستقلال. فالبحر هو ساحة معركة في سبيل بقاء الأمة [٤١]، وهو، في الوقت نفسه، تجاوز نحو النقاء فيما رصانة المشهد الإيجي تبدو متنافرةً مع الدم المراق [٤٢] في سبيل الحرية. فلدى الشعراء الأبتانيين في النصف الأول من القرن التاسع عشر (أندرياس كالفوس، ديونيسيوس سولوموس، أريسطوطيليس فالاوريتيس، جيراسيموس ماركوراس) أو لدى الرومنطيقيين الأثينيين (ألكسندر سوتسوس، بانايوتيس سوتسوس، ألكسندر ريزو – رانغابي، ج. زالوكوستاس)، يغدو هذا الجزء من البحر المتوسّط، بحر إيجه، مكاناً مقدساً [٤٣]، يغدو المكان الرمزي للبقاء الهليني. إنه بحر هليني صرفٌ مرتبط بمصير البلد.

نحو نهاية القرن التاسع عشر، تبتعد الأزمنة البطولية والتراجيدية بحيث تكتسب شعرية البحر وظيفة مختلفةً قليلاً. فالشعراء، شأنهم شأن ناثري تلك الحقبة، قد خضعوا لتأثير الأبحاث التي أجراها نيكولاوس بوليتيس. سواء على مستوى الأسلوب أو اللغة الشعبية المتداولة، كان الاهتمام المنصبّ على التقاليد اليونانية، ينعكس أيضاً على المشهد الطبيعي الذي يرسم، هو بالذات، خصوصيات البلد. ومع ذلك فإنّ الموضوعة البحرية، فضلاً عن الوصف العاطفي لمشهد طبيعي يونانيّ بحتٍ [٤٤] غالباً ما يكون مرتبطاً بالمصير الإنساني [٤٥] أو مذكراً بعالم الصيادين [٤٦]، لا ترتقي من حيث قيمتها الرمزية إلاّ لدى شاعر الحقبة الكبير، كوستيس بالاماس، الذي كان مهجوساً بالعظمة التاريخية للبلاد. ففي السونيتات الاثنتي عشرة، مثلاً، والتي تشكّل الجزء المعنون «أوطان» [٤٧]، (وصيغة الجمع هنا ذات دلالة بالغة)، تتسع صورة اليونان المذكورة لتشمل كل الحقب التاريخية، ولتشمل، تالياً،

المراكز الهلينية في المتوسّط الشرقي. إنّ الحقول الدلالية المستخدمة من قبل الشاعر تلوذ باليونان الميتولوجية، يونان هوميروس، اليونان البيزنطية والعثمانية، المحاطة بالبحار والواقعة بين الشرق والغرب. إنّ الطابع الهليني لهذا الشرق المتوسطي يحيا من خلال الأغاني الشعبية لجانينا وإزمير والقسطنطينية [٤٨]. تنبثق جذور اليونان وتاريخها لدى بالاماس عبر الطابع الرمزي لإطارٍ بحريٍّ أيضاً، حاملٍ كلّ آثار المتوسّط الشرقي، وإنْ كان الشاعر لا يشير البتّة إلى مسألة هوية متوسطية خاصّة.

بيد أن التاريخ اليوناني وميتولوجيته لطالما كانا مرتبطين بالبحر. لنفكّر، ببساطة، بالأوديسا وديمومتها في الأدب الحديث. لنفكّر أيضاً بحضورها المتواصل في النصوص التي تدرّس في المدارس. يشهد عوليس وأسفاره عدداً من التحولات، كما يخضع، في كلّ مرة، لغاياتٍ تعليمية مختلفة. غير أن ما لا يرقى إليه الشكّ هو أن مسار عوليس في مكابدته المخاطر البحرية، الذي يستدعي، في وقتٍ معاً، الجذور الميتولوجية للهلينية وقدره الذي يحتّم عليه مواجهة مخاطر البحر، إنما يشكّل رمزاً متوسطياً يتخطّى الحدود الوطنية. في ذروتها تمثّل «أوديسا» نيكوس كازنتزاكيس [٤٩]، في ٣٣٣٣٣ بيتاً و٢٤ رابسودة، التأويل المعاصر للملحمة. وتمثّل، في الوقت نفسه، إبداعاً أصيلاً لأنها مزيج ثقافي متعدّد من الشكل الملحمي القديم والفكر الفلسفي الشرقي، كما أنها تتضمّن، على ما يبدو، قبساتٍ من الحضارة اليونانية [٥٠]. إنّ أوديسّا كازنتزاكيس تختم القصائد الملحمية التي باشرها هوميروس حول العدمية وموت الآلهة [٥١]. ذلك أن عوليس كازنتزاكيس ينصرف إلى البحث عن الله تماماً كما ينصرف عوليس هوميروس إلى البحث عن الوطن. وتغدو مسيرة عوليس الشهادة على مسيرة وجودية مقلقةٍ يمثل فيها المسيح وبوذا ولينين محطاتها الأبلغ دلالة [٥٢].

إذا كان القرن التاسع عشر يسعى إلى تحديد الهوية الهلينية

بانكبابه على التقاليد الشعبية، فإنّ «الميتولوجيا» البحرية تحتفظ فيه بمكانة جوهرية بفعل ارتباط المجتمعات، والبحرية منها خاصّة، بالبحر في حياتها اليومية الأساسية. فعبر الوصف الأمين لمسقط الرأس في البداية، أو عبر وصف العادات والأعراف، ينبثق العالم البحري بكلّ ألقه، ولكن أيضاً بكلّ ضراوته. ذلك أن الإنسان الصياد أو البحار، في مواجهة البحر يناضل ضدّ ما يمثّله من مخاطر سعياً وراء الرزق. وكان لعلم اجتماعيات العالم المتوسطي في القرن التاسع عشر، أن يستند إلى مثل تلك النصوص التي تعرض، بالضبط، لخاصيّاتِ شعبٍ يعيش بجوار البحر. ويكون الأمر، طبعاً، بمثابة تأويلٍ لاحقٍ من شأنه أن يؤدي، على وجه الاحتمال، إلى محصلةٍ للخاصيات المحلية في عددٍ من البلدان المتوسطية. ولكن، على مستوى التدوين الأصليّ للنصوص، ما كان الوعي البحريّ ليتطابق مع وعيٍ متوسطي.

بالمقابل، وفي مطلع القرن العشرين، وعلى الأخصّ مع جيل الكتاب الذين برزوا في فترة ما بين الحربين – ما يسمّى بجيل الثلاثينات –، يهجر البصرُ الضفافَ، وينعتق من وصف المجتمعات والنماذج البحرية ليبلغ عرض البحر ويؤسّس عليه إشكالية خاصّة بالانتماء اليوناني. ويشكّل الانفتاح باتجاه البحر، بحر إيجه اليوناني، البحر المتوسّط، قطيعةً مع الماضي واستكمالاً له في وقتٍ معاً. إنها نزعة تنشأ في أعقاب إيديولوجية الفكرة الكبرى، وتستلهمها، شاخصةً بأبصارها نحو اليونانيين الذين يقطنون بلدان المحيط المتوسطي، وخاصّة الشرقي منه، لكنها، في الوقت نفسه تكوّن ميتولوجيا جديدة للجذور، ميتولوجيا خاصّة بالروحية الإيجية للعرق اليوناني.

ويمثل هذه الروحية يطرح ديموستينيس دانييليديس إشكالية لليونان تقرّبها، نظراً لموقعها الجغرافي المتوسّطي، من سواحل آسيا الصغرى. إنه يتكلّم حتّى على متوسّط يوناني ضيّق، أي ذاك المؤلّف من بلدان المتوسّط الشرقي التي يقطنها اليونانيون أيضاً :

«من بين هذه العناصر التي تميّز الطبيعة اليونانية، ما يبرزها جميعاً من حيث الأهمية التاريخية، ما يغلب عليها، وهو موقعها الجغرافي. فاليونان تقع عند بوّابة الشرق في قلبِ المتوسّط. والمتوسّط هو من بين البحور قاطبة البحر الذي لا يفرّق بل يوحّد (...) هذه الوحدة لم تكفّ يوماً، منذ أقدم العصور، عن أن تكون الخاصيّة الرئيسة لليونان. فالبلدان التي يقطنها اليونانيون، من البحر الإيوني ومن بحر إيجه وحتّى البحر المضياف (الأسود) وما بعده، تشكّل جزءاً من المتوسّط وإذا ما نظرنا إليها على حدةٍ، فإنها تشكّل متوسطاً صغيراً، هو اليونان.» (٥٣).

يرى دانييليديس أن في هذا المتوسّط الصغير يتجسّد انتماء اليونان إلى وحدة جغرافية اقتصادية متميّزة، هي الشرق الأدنى الذي تلتفت اليونان إليه على نحوٍ واضحٍ. ثمّ أن الساحلين، ساحل اليونان وساحل آسيا الصغرى، يتميّزان، معاً، بخاصيّات الطبيعة المتوسطية. فعلى سواحل آسيا الصغرى

«تطالعنا الطبيعة نفسها. السماء نفسها، والمناخ العذب نفسه، الخضرة نفسها والأشجار القديمة، رمز المتوسّط، نفسها، كالزيتون والتين والكرمة والحمضيات (...) لقد كان الساحلان وما زالا إلى اليوم العنصرين المتمايزين ولكن المتتامين للوحدة نفسها (...) فعلى هذا النحو نشأ ويحيا منذ قرون من الزمن ما يميّز تاريخ الحضارة المتوسطية، وبطبيعة الحال، حضارة أوروبا : الوحدة الثابتة ولكن المتفرّدة لبلدان بحر إيجه.» (٥٤)

بحر إيجه إذاً هو المهمّ، المتوسّط اليوناني الذي، فيما هو يذكّر بإيديولوجية الفكرة الكبرى، والذاكرة الحيّة، بعدُ، للعرق الهليني في الضفّة الأخرى، يحثّ على صوغِ ميتولوجيا جديدة للجذور.

هذه الميتولوجيا تأسّست على نصوص سابقة، أسهمت قراءتها من جديد في التمهيد لإشكاليات أخرى :

«إنّ السمة الأبرز تكمن في أن هذا الجيل قد انكبّ بعنادٍ على البحثِ عن الجذور، عن الأصول الهلينية لكي يتمكّن من إحياء قيمه والعثور على أسسها : لقد أحبّ سولوموس وكالفوس

وإيروتوكريتوس، والمسرح الكريتي وماكريانيس وياباديامنتيس، والأغاني الشعبية والتصوير البيزنطي، والعمارة المحلية

كتب إيلياس فينيزيس عام ١٩٦٣ (٥٥)، سعياً منه للحكم على ما أنتجه جيله هو. وكان الشاعر جورج سيفيريس قد لاحظ من قبل، في العام ١٩٤١:

«ما يميّز أبحاث الشباب هو نوعٌ من المزاج الجزيري. فالآفاق تتسع... بحر إيجه بجزره، الميتولوجيا البحرية، السفر في كلّ الاتجاهات، هذه كلّها أشياء تؤثّر فيهم ويحاولون التعبير عنها.» (٥٦)

لكي يتاح لنا تقدير أفضل للمدّة التي سادتها هذه النزعة وتقدير قوتها، يمكننا القول، على سبيل المثال، إنه حتّى اتحاد موظفي البنك الهليني قد نظّم، في ختام العام ١٩٥٤، بعدَ ظُهرٍ أدبياً مكرّساً لبحر إيجه. وقد كُتِبَ على بطاقة الدعوة أنّ

«التعبير الثقافي والفني لبحر إيجه يمثّلُ حالياً في صلب الحياة الثقافية لليونان.»

لم تتوانَ مجلّة Néa Estia عن نشر نصوص الكاتبين اللذين اشتركا في هذه التظاهرة الثقافية، وهما إيلياس فينيزيس وبيتروس هاريس (٥٧).

فالحقيقة أن أشكال التعبير لدى هذه النزعة متعدّدة. فهناك النتاج الروائي والشعري وأدب الرحلات، ولكن هناك أيضاً الدراسات التي جاءت لتبني ولتجسّم إيديولوجية كاملة لليونان مبنيةً على خاصيّاتها الإيجية (٥٨). ولقد اعتبر هذا الاهتمام المستجدّ بالمشهد اليوناني الطبيعي بوصفه عودةً إلى الأرض، وعودةً إلى جذور العرق الهليني، ويعبّرُ عن حاجةٍ إلى إبراز

«كلّ ما له صلة بالحكاية، بالتاريخ، بالخرافة التعليمية وبالمغامرة الهلينية. إنها حركة للروح التي بدأت، في نظر الكثيرين، منذ العام الأول للعبودية، وزمن الجوع والدم. (...) إنها

> محادثـة سريّـة، سيرة ذاتـيـة، تـقـاربٌ مـع الجذور الأولى، الأولى بإطلاق،... تعيننا على إدراك ما يتقوّم به الخلودُ الثقافي لهذا البلد : أي فنّه.» [٥٩]

الأرض هي التي تعلّم لوغوس العالم أجمع. واليوناني القديم قد شُكِّلَ على صورة الأرض اليونانية، يقول ديميتريس بيكيونيس، المهندس المعمار الذائع الصيت، والذي تحترم إنشاءاته، على أكمل وجه، المنظر الطبيعي الذي تشيّد فيه [٦٠].

يغدو المنظر الطبيعيّ البحري مصدراً للخلقِ الفني، أداةَ إعادة تقويم، وتأويلاً جديداً للفنّ السابق أيضاً. الطبيعة لا تمارس تأثيرها في الفنان فقط بوصفها رسماً تصويرياً، بل بوصفها صلةً داخلية. وهكذا يغدو عملَ هوميروس الخالد، في وقتٍ معاً، قصيدةً رائعةً عن البحر وإشراكاً لروحهِ مع أرواحِ كلّ الأبطال الذين سطّروا تلك الملحمة العظيمة لعرقنا. إنّ المنظر الطبيعيّ البحري اليوناني هو طبيعةٌ على قياس الإنسان. فالبحر اليوناني ليس اتساعاً لا نهاية له، بل تستقرّ العين فيه على سواحل الجزر المجاورة، والأفق محدود [٦١]. وعلى هذا النحو يكتسب العمل الفني معنى التوازن، والاعتبار، والوضوح. حتّى أن بعض هؤلاء المؤلفين يتخذ مواقف على قدرٍ من التطرّف، على غرار ميريفيليس مثلاً، الذي يرى أن جوهر الهلينية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبحر وأنّ كلّ إبداعٍ يبتعد عن ماهيته الأصلية محكومٌ عليه بالزوال [٦٢].

إنها روحية العرق اليوناني، هي التي تتوارى في بحر إيجه، إنها «الروحية التي توحدنا، والتي نحسّ بها في دمائنا، والتي نمجّدها – أمنا ومهدنا» [٦٣]. إنّ أصوات بحر إيجه ترتفع في الليل «كالأصوات الأصيلة للخلق التي تنبع من نبع الحياة»، كأناشيد عبادة وخشوعٍ، كصلاةٍ صادحة للمصير الذي لا مفرّ منه. إنّ الله، خالق العالم، ومنعطفات الرحيل والرجوع ينشد ممجداً الكائنات والأشياء كما ينشد النشيد الليلي للبحر فوق الأمواج المعتمة اللامرئية [٦٤].

نحن نعشق البحر لأنّ وجودنا يخفي حاجةً إلى الهروب. البحر نفسه هو حركة هروب بأشرعته وأمواجه ونوارسه [٦٥] . إنّ «الروحية البحرية لبحر إيجه» لدى إيلياس فينيزيس هي روحية الهروب، روحيةِ السفر، روحية السعي وراء المعرفة : «إسعَ ! إسعَ ! دائماً إسعَ»، هذه رسالة تصلنا من الأسلاف كافّة، من تراثٍ إيجي بحت للتدليل على روحية وثنية ومسيحية في وقتٍ معاً. وتلك هي الروحية التي حثّت العالِم المتحدّر من أندروس، تيوفيل كاييريس، على البحثِ حتّى عن جسد الله [٦٦]. ذلك أن جزر بحر إيجه، بما هي مرتكزاتٍ ثابتة في عرض البحر، تحثّ على الحركة، على التنقّل. فالجزر تنشىء ذهنياتٍ قلقة، مستعدّة لمكابدة المخاطر، وتخطي الصعاب التي لا تحصى، ومنفتحة على البحث.

«الواقع أن الروحية الأكثر خصوبة للهلينية الجديدة، عبقرية الأرخبيل، الروحية البحرية، ليست سوى التالي : الحركة الأبدية، الغواية التي لا تنضب لنداء السفر، لنداء المعرفة والخرافة. لكي نكون حيث تلوح أول يابسة. وبعد ذلك، حين نبلغها، نعاود السفر، إلى أبعد، أحياناً حبّاً بالذات، حبّاً بالمعرفة، حبّاً بالإرادة، حباً بشغفِ الحياة.» [٦٧]

تكمن عبقرية بحر إيجه أيضاً في

«تقليدٍ من الذكاء والجرأة، عبقرية ملاحية، بحرية، تجارية، عبقرية الأرقام، ولكن أيضاً عبقرية الروح، مطاردة للقوة وللخرافة في آفاقٍ رائعة، تودّ أن تبلغ أقاصي العالم.» [٦٨]

لقد شاع حبّ السفر أكثر فأكثر بين كتّاب تلك الحقبة. فإذا بهم ينصرفون إلى اكتشاف أو إعادة اكتشاف اليونان بأذلين جهداً كبيراً في استنباط تأويلاتٍ جديدة وأبحاثٍ في الروحية الهلينية. وليس محض مصادفة أن ينظّم النادي الإيجي اليوناني، في العام ١٩٥٠، مسابقة في الرحلات الأدبية [٦٩].

في غمرة انغماس الأدب، في تلك الحقبة، في حدود بحر إيجه،

لن يبرز الشعور بالمتوسّط إلاّ عندما يبتعد الكتّاب عن هذا البحر، الزاخر بالمعاني الثقافية والرمزية، والقريب جداً من ذواتنا لكي نتمكّن من تخفيف حمله بقولنا إنه جزء من كلّ أكثر اتساعاً.

كتب كليون باراخوس في سرده لوقائع رحلته في البلدان المتوسطية :

«إنـي لا أتكلّم إلاّ على المتوسّط، اليونان، إيطاليا، فرنسا وأسبانيا. هذا البحر المغلق، هذه البحيرة الشاسعة هي قلب العالم. أنا لا أعشق سوى المتوسّط، طابعه الماديّ والروحانيّ، فنونه، حضاراته، تاريخه، أعشقها بشغف. فأنا، وإن كنتُ لم أولد في المتوسّط، إنسانٌ متوسطي، وأعشق أن أكون كذلك.» (٧٠)

متوسّط مألوف، خاصّةً بفعل حضور اليونانيين، يتبدّى للعيان عندما يزور الرحّالة البلدان العربية في إفريقيا الشمالية (٧١). ويشير جورج تيوتوكاس إلى الصلاتِ الروحية والثقافية بين اليونانيين والعرب، وخاصّةً ما يتعلّق بمسقبل الثقافة اليونانية في البلدان العربية :

«منذ أن نِلنا استقلالنا أبدينا ميلاً غالباً للالتفات إلى المراكز الثقافية في العالم الغربي، ساعين إلى التعويض عمّا فاتنا في مجالات تطور العلوم والثقافة الاجتماعية، خلال الفترة القاتمة للاحتلال العثماني. طبعاً سوف نواصل تطلّعنا إلى الغرب لأننا أفراد في العائلة الأوروبية الكبرى. ومع ذلك فإنّ العالم العربي يتيح لنا، في الوقت نفسه، فرصةَ أن نأخذ وأيضاً فرصة أن نعطي.» (٧٢)

في الإسكندرية، ينظر إ.م. بانايوتوبولوس إلى المتوسّط بوصفه بحراً زاخراً بالتاريخ والشعر :

«الأرض تغصّ بالبحار، غير أن هذا البحر، المتوسّط، الذي يصالح بين إفريقيا وآسيا وأوروبا، هذه الموجة التي تسافر إلى القارات الثلاث، مفعمةً بالروح، والمخيّلة والثمالة، إنّها حدث جوهريّ ينبغي ألاّ نغفل عنه قط. إنّ أعمق ما في دخائلنا ينتمي

إلى هذه الموجة. ما نحن عليه، عظيماً كان أو متواضعاً. تردّدنا وظمأنا. هاجسنا ولامبالاتنا. مُنيةُ الأغنية والروح. البحر المتوسّط. الجنوب الرائع.» [٧٣]

متوسّط أكثر رحابةً لكنّه، في الوقت نفسه، محدّد، مغلق، يتبدّى للعيان عندما يتجه الرحالة نحو جبل طارق ونحو المحيط [٧٤]. ويبدو التناقض بين ثنائي المتوسّط والمحيط في بعض نصوص تلك الحقبة بوصفه تنافراً رمزياً غنياً بالدلالة. إذ يغدو المتوسّط في نظر الذين يسافرون إلى ما وراء جبل طارق، مكاناً مألوفاً ومعروفاً، مشتركاً بين كلّ البلدان التي تحوطه بسواحله البادية من متن السفينة. أمّا المحيط، فهو، على الضدّ من ذلك، تصوّر المجهول، والبعيد، والعزلة، وهو مثيرٌ للخوف [٧٥].

ربّما الأجدى أن نقول إنّ إطلاق هوية وطابعٍ بوصفهما متوسطيين إنما يتأتى من نصوص المؤلفين الأجانب. ذلك أن رؤية الرحّالة الذين يجوبون مساحاتٍ شاسعة، ويجتازون البحر المتوسّط، بخاصّة، لأسبابٍ متعدّدة ومتنوعة، هي القادرة على إجمالِ البلدان التي تعبرها في كلٍّ واحد. ولعلّ بروز عبارة «المتوسّط» في عناوين مؤلفاتهم، هو البرهان على ذلك. فهل يكون الطابع المتوسطي، في آخر الأمر، هو سمة يطلقها على «الآخر» من ليسوا بمتوسطيين ؟

ربّما ليس من قبيل المصادفة أن يكون الكتّاب الأبرز في ذلك الجيل، أولئك الذين أنشدوا بحماسة متميّزة عبقرية بحر إيجه، متحدّرين من الجزر القريبة من سواحل آسيا الصغرى (ستراتيس ميريفيليس) أو من مدن آسيا الصغرى (إيلياس فينيزيس). وهذه أيضاً حال الشاعر جورج سيفيريس المولود في إزمير. فلديه ولد الشعور بالبلد المفقود في الضفة الأخرى من بحر إيجه، شعريةً للبحر مرتبطة بمكانِ الجذور [٧٦]. ومع ذلك فإذا كانت الموضوعة البحرية ورمزيتها تحتلان صلبَ اهتمامات سيفيريس، فإنّ عبارة «المتوسّط» لا تظهر البتة في أبياته. والحال أنه قد ذاعَ عن

سيفيريس أنه كان يعتبر نفسه عاشقَ بحرٍ كما أنه تنقّل كثيراً بين بلدان المتوسّط التي وصفها في قصائده [٧٧] وفي يومياته الحميمة.

بقي ذِكرُ المتوسّط نفسه نادراً في الأعمال الشعرية على غرار الأعمال النثرية لكتّاب تلك الحقبة. مع أنّ السعيَ وراء الانتماء اليوناني في المجال المتوسّطي يجعل من البحر مكاناً للجذور. لذا فإنّ تبيانَ «تصورات» المتوسّط يتطلّب بحثاً على المستوى الرمزي، وبالتالي، فإنّ إضفاء قيمة رمزية على العناصر المكوّنة للمنظر الطبيعي المتوسّطي يبدو مشروعاً من الناحية النظرية. لقد بلغت إعادة اكتشاف بحر إيجه، في أبعاده الرمزية، لحظةَ الذروة مع الشاعر أوديسياس أليتيس الذي يعتبر شعره برهاناً بليغاً على السعي وراء وعيٍ هليني في البحر المتوسّط. وقد تكون قصيدته Axion Esti ، التي نشرت للمرة الأولى عام ١٩٥٩، هي أفضل ما يدلّل على ذلك. فبحر إيجه هو جوهر الشعر نفسه، وسواحل هوميروس هي مناهل اللغة الهلينية. أمّا المتوسّط، بنظرةٍ إجمالية، فيظهر أحياناً بوصفه صوراً فورية، متجاورة، في سلسلةٍ من الصور اللفظية [٧٨].

غالباً ما يتسع مجال بحر إيجه ليشمل الشتات، على سواحل آسيا الصغرى، وقبرص والإسكندرية والقاهرة. وكان كافافي قد لجأ، من قبل، إلى البحر لا بوصفه إطاراً لقصائده وحسب بل أيضاً بوصفه مؤشّراً على هوية عرق، بوصفه مؤشراً على تماسك الجماعة الهلينية المشتّتة.

وإذا كانت الفكرة المتوسطية ستصاغ أولاً في ميدان علوم الطبيعة – الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي – في مطلع القرن التاسع عشر، وفق سيرورةٍ طويلة منطلقةٍ من الخاص إلى العام [٧٩]، فكيف ترسّخت هذه الفكرة في الذاكرة الجمعية ؟ الحقيقة أنّ الأمر يتعلّق ببناءٍ ذهني مبنيٍّ على المقارنات الناجمة عن زيارة الأماكن نفسها. بحسب هذا المنطق تقوم «الفكرة المتوسّطية» على أساس سيروراتٍ معرفية وعلى أساس الذهنية العلمية أكثر مما تقوم على

وعيٍ سابق لخصوصية متوسطية يأتي العلم ليبرّرها. ذلك أن التقاليد البحرية، والرمزية الشعرية للبحر، والاستعارات الميتولوجية في الأدب اليوناني خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، تشكّل عناصر انتماءٍ يوناني لا يمكن، مع ذلك، التنكّر لطابعه المتوسّطي. إنّ تبيان السمات الهلينية البحتة يتقاطع ويتماهى مع السماتِ التي يتفق الجميع على أنها متوسطية. فما الحاجة إذاً إلى تعريف ما هو مضمر وبديهي ؟

هكذا نشهد تمثّلاً ما للبحر المتوسّط – وخاصة المتوسّط الشرقي الذي ما زال يحفظ الآثار الحيّة، بعدُ، للهلينية المشتتة –، عبر فكرة الهوية والتراث الوطني، عبر السعي المستميت وراء النزعة الهلينية. فبحر إيجه أولاً، والمتوسط الشرقي تالياً، يغدوان الرمزين الأدبيين بامتياز للروحية اليونانية، وللجوهر الهليني. ومثل هذا التمثّل يضعف كلّ فرضية لوعيٍ متوسطي في المعنى الواسع. وعي متوسطي ينبثق، مع ذلك، عندما يبتعد اليونانيون المتوسطيون هؤلاء من مجالهم الضيق قاصدين البحار الكبرى. وعي متوسطي ينبثق أيضاً عندما نعثر على أثرٍ للعرقِ على الضفّة الأخرى من البحيرة المشتركة. أي، باختصار، عندما نشعر بالحاجة إلى نشر كبريائنا المتعلّق بالهوية إلى ما وراء حدودنا الوطنية.

« أي متوسّط ؟» يسأل، بحقّ، المؤرخ فاسيليس بانايوتوبولوس، في مقالةٍ له صدرت حديثاً[٨٠]. ولكن قد نتجرّأ على الإجابة : متوسطنا، المتوسّط الهليني لبحر إيجه.

الحواشي

(١) أنظر على سبيل التدليل، أنتيموس غازيس، «القاموس اليوناني»، البندقية، ١٨١٢، «ما يقع وسط اليابسة»؛ قسطنطين كوماس، «قاموس لاستعمال الذين يدرسون المؤلفين اليونانيين القدامى»، البندقية، ١٨٢٦، «ما يقع بين اليابسة، القارة، الأرض».

(٢) أنظر مادة «متوسِّط» في «الموسوعة اليونانية الكبرى»، التي تحمل توقيع إيمانويل ليكوديس.

(٣) جيراسيموس فلاشوس، «فهرس المصطلحات»، البندقية، ١٦٥٩، ص٣٩٨؛

(٤) «مقدّمة للجغرافيا»، باريس، ١٧١٦، ص١٣٦؛

(٥) «الجغرافيا القديمة والحديثة»، البندقية، ١٧٢٨. وقد نشر هذا المؤلف للمرة الثانية في البندقية في عام ١٨٠٧ بعناية أنتيموس غازيس، أما بشأن ميليتيوس واستخدام مفردة المتوسِّط، أنظر: قسطنطين كيرياكوبولوس،ميليتيوس (ميتروس) الأثيني، الجغرافي (١٦٦١–١٧١٤)، أثينا، ١٩٩٠، ج١، ص٥٤٥–٥٤٦ وأ. ليكوديس، المرجع المذكور.

(٦) أنظر بهذا الشأن مقالة ب. م. كيتروميليديس، «الأرثوذكسية والهوية الجمعية في جنوب شرق أوروبا»، (باليونانية) ضمن أعمال «مؤتمر البلقان والمتوسِّط الشرقي، بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر»، معهد البحوث البيزنطية – المؤسسة الوطنية للبحوث العلمية، أثينا، ١٩٩٨، ص١٢٧–١٣٨. وانظر أيضاً للمؤلف نفسه «ذهنية البلقان: التاريخ والأسطورة والمخيلة» (بالإنكليزية) في Nations and Nationalism، ٢، ١٩٩٦، ص١٦٣–١٩١؛

(٧) «حديقة النِّعم»، المكتبة اليونانية المبسطة، ج٣، باريس، ١٨٨١. راجع أيضاً طبعتين حديثتين للنص: تلك التي صدرت بعناية غ. ب. سافيديس (١٩٩٥) والأخرى التي صدرت بعناية ألكيس أنغيلو (١٩٩٧).

(٨) ك. ث. ديماراس، تاريخ الأدب الهليني الجديد، أثينا، ١٩٨٣ (٧)، ص١١٤ ؛

(٩) جورج سيفيريس، «دراسات»، أثينا، ١٩٧٤ (٣)، ص٢٧٦ ؛

(١٠) أنظر ب. م. كيتروميليدس، المرجع المذكور، ص١٣٢ ؛

(١١) أنظر «حديقة النعم»، المذكور، ص١٧٤، ٢٢٨ ؛

(١٢) نفسه، ص١٧٤ ؛

(١٣) كان تأسيس الجمعيات الأركيولوجية، ومن بينها جمعية ديليتانتي (١٧٦٨)، أحد مظاهر هذه النهضة التي كانت على صلة وثيقة بحركة الرحّالة باتجاه اليونان. وفي أواخر القرن، جاء نشر كتاب الأب بارتيليمي «رحلة الشاب أناخاركيس إلى اليونان» (١٧٨٩)، ليجسّد هذا الالتفات إلى العالم القديم، وهو التفات كان قد تجاوز حدود علم الآثار : ويمكن الحديث حتّى عن دُرجةٍ راجت في مختلف ميادين الحياة اليومية .

(١٤) أنظر، على سبيل المثال، «رحلة اليونان الأدبية أو رسائل حول اليونانيين، القدامى والمحدثين، مع ذكرٍ موازٍ لعاداتهم»، باريس، ١٧٧١، تأليف بيار أوغوستان جيوس الذي يعمد إلى إجراء مقارنة منهجية بين اليونانيين القدماء وبين نمط حياتهم المعاصر لكي يخلص إلى تأكيد تحدّر اليونانيين الحديثين مباشرةً من أسلافهم.

(١٥) وحده الجزء الأول نشر في البندقية في عام ١٧٩١. والمراجع تحيل إلى الطبعة المعاصرة للنصّ، (تحرير) كاترين كوماريانو، أثينا، ١٩٨٨؛

(١٦) «الجغرافيا القديمة والجغرافيا الحديثة»، ١٢ جزءاً. حول مصادر «الجغرافيا الحديثة»، راجع مقدّمة كاترين كوماريانو، المرجع المذكور، ص٤٠-٤٣ ؛

(١٧) باريس، ١٧٠٤-١٧٦٠ ؛

(١٨) «إنّ تسلسل الأحداث التاريخية والجغرافيا هما فرْعا وسندا العلم الذي نحن بصدده : فالأول، إذا جاز القول، يموضع البشر في الزمن؛ والثاني يوزعهم على أنحاء كوكبنا»، دالمبير، المقالة الافتتاحية للموسوعة، ج١، ١٧٦٠، XI. أوردتها كاترين كوماريانو، المرجع المذكور، ص٣٤.

أنظر أيضاً الفصل المعنون «الانسان في مجتمع فويان في مونتسكيو» في مؤلّف نوما بروك، «جغرافية الفلاسفة. الجغرافيون والرحالة الفرنسيون في القرن الثامن عشر»، باريس، منشورات أوفريوس، ١٩٧٥، ص٢٢١–٢٢٩ ؛

(١٩) حول الأبعاد الإيديولوجية لـ «الجغرافيا الحديثة»، أنظر الفصل المعنون «جغرافية الحضارة»، في ب.م. كيتروميليدس، «أنوار هلينية جديدة. الأفكار السياسية والاجتماعية»، أثينا، ١٩٩٦، ص١٣٨–١٤٨.

(٢٠) «الجغرافيا الحديثة»، المرجع المذكور، ص٩١ ؛

(٢١) نفسه، ص ٧٧،٧٩ ؛

(٢٢) نفسه، ص ١١٨ ؛

(٢٣) أنظر بهذا الشأن، كريستينا كولوري، «التاريخ والجغرافيا في المدارس اليونانية»، (١٨٣٤–١٩١٤)، المحفوظات التاريخية للشبيبة اليونانية – ١٨، أثينا، ١٩٨٨، ص٢٣–٢٤ ؛

(٢٤) غ.أ. فاكالوبولوس، «الجغرافيا التمهيدية للمدارس الهلينية»، أثينا، ١٨٤٨. أوردته كريستينا كولوري، المرجع المذكور، ص١٤٣ ؛

(٢٥) مقدّمة بوليتيمي كوسكوري لكتابه المدرسي «جغرافية اليونان القديمة»، أثينا، ١٨٥٤، ص vii ؛

(٢٦) أ. ميلياراكيس، «في الفائدة من العلوم الجغرافية»، أستيا، ١٨٧٧ ؛

(٢٧) أ.س. أغابيتوس، «الجغرافيا الميسرة للأطفال»، أثينا، ١٨٦٩ ؛

(٢٨) مذكور في ك.ث. ديماراس في الفصل المعنون «عن هذه الفكرة الكبرى»، في «رومنطيقيات هلينية»، أرميس، أثينا، ١٩٨٢، ص٤٠٥ ؛

(٢٩) أنظر، على سبيل المثال، برنامج الدروس المطبّق في مدارس البنين عام ١٨٩٤، في كريستينا كولوري، المرجع المذكور، ص٣٨٩–٣٩٣ ؛

(٣٠) أنظر، بهذا الشأن، مقدّمة نيكولاوس شيناس في «مذكرات رحلة»، أثينا، ١٨٨٣ ؛

(٣١) أنظر للمؤلف نفسه : «ملاحظات رحلة إلى مقدونية، وإيبيروس، عند الخط الحدودي الجديد وإلى تيسالي»، أثينا، ١٨٨٧ ؛

(٣٢) «دراسة حياة اليونانيين الحديثين»، ١٨٧١، ١٨٧٤ ؛

(٣٣) ملحق مجلة «Estia»، العدد ٤١٧، ١٦، ١٨٨٣، ص١-٤ ؛

(٣٤) أنظر بهذا الشأن : ماريو فيتي ، «الوظيفة الإيديولوجية لوصفِ العادات في اليونان»، أثينا، ١٩٨٠ [٢]، ص٦٣-٦٤ ؛

(٣٥) «سحر باباديامنتيس»، منشورات أرميياس، من دون تاريخ، ص١١ ؛

(٣٦) ديميتريس بلاكاس، «الرحلة الأدبية»، إيراكليون - كريت، ١٩٩١، ص٧٣ ؛

(٣٧) ديونيسيوس سولوموس (١٧٩٨-١٨٥٧)، «ظلّ هوميروس» ، نشر للمرّة الأولى بعناية لاكوفوس بوليلاس، عام ١٨٥٩ ؛

(٣٨) ج. زالوكوستاس (١٨٠٥-١٨٥٨)، «رحيله» ؛

(٣٩) ألكسندر ريزو-رانغابي، «رحلة ديونيسيوس البحرية» ؛

(٤٠) ديونيسيوس سولوموس، «أفريكومي»؛ أريسطوطيليس فالاوريتيس (١٨٢٤-١٨٧٩)، «أسى» ؛

(٤١) ديونيسيوس سولوموس، «الكريتي» ؛

(٤٢) أندرياس كالفوس (١٧٩٢-١٨٦٩)، «إيفايستا» ؛

(٤٣) بانايوتيس سوتسوس (١٨٠٦-١٨٦٨)، «تحية بحر إيجه») ؛

(٤٤) جورج دروسينيس (١٨٥٩-١٩٥١)، «أناشيد البحر» و «الضباب» ؛ لامبروس بورفيراس (١٨٧٩-١٩٣٢)، «أحبّ» ؛

(٤٥) نيكوس كامباس (١٨٥٧- ١٩٣٢) «الضفّة» ؛ آرجيريس أفتاليوتيس (١٨٤٩-١٩٢٣)، «جزر وعرض بحر» ؛

(٤٦) لامبروس بورفيراس، «أصوات موسيقية» ؛ زاكارياس باباندونيو (١٨٧٧-١٩٤٠) ، «نعاس الفلك الصغير» ؛

(٤٧) في مجموعة «الحياة القارّة»، الصادرة عام ١٩٠٤. وقد نشرت سونيتات «أوطان» للمرة الأولى عام ١٨٩٥ ؛

(٤٨) «شرق» ؛

(٤٩) لقد شرع كازنتزاكيس في تأليف القصيدة في عام ١٩٢٥ وفرغ من تأليفها عام ١٩٣٨ ؛

(٥٠) كوستاس ستيرغيوبولوس، «٣٣٣٣٣ بيتاً من أوديسا كازنتزاكيس» في «ترحّلات»، ج١، أثينا، ١٩٨٢، ص٨٣-٩٠ ؛

(٥١) بانديليس بريفيلاكيس، «الأوديسا، الشاعر والقصيدة»، أثينا، ١٩٥٨، ص١٨٦ ؛

(٥٢) نفسه، ص١٠٨، ٢٧٨ ؛

(٥٣) ديموستينيس دانييليديس، «المجتمع والاقتصاد اليونانيان الحديثان»، أثينا، ١٩٣٤، ص٣-٤ ؛

(٥٤) نفسه، ص٥ ؛

(٥٥) «جيل الثلاثينات»، صحيفة To Vima ، ١٢ آذار/مارس ١٩٦٣. مذكور في ماريو فيتي، «جيل الثلاثينات»، أثينا، ١٩٨٧، ص٢٠٥ ؛

(٥٦) «دراسات ١»، أثينا، ١٩٧٤ [٣]، ص١٦٧-١٦٨ ؛

(٥٧) إيلياس فينيزيس، «بعد ظهر لبحر إيجه»، وبيتروس هاريس، «الجيل الحالي لبحر إيجه»، Néa Estia ، العدد ٥٧،٦٦٠ (١ كانون الثاني/يناير ١٩٥٥)، ص٢٨-٣١ و٣٢-٣٥ ؛

(٥٨) أنظر، على سبيل المثال، دراسة إ.م. بانايوتوبولوس، «أطروحات ونقائض المشهد الطبيعي اليوناني» I ، منشورات النادي البيريجي اليوناني، أثينا، ١٩٥٣ ؛

(٥٩) إيلياس فينيزيس، «الطبيعة اليونانية»، مجلة Néa Estia ، العدد ٦٤٦، ٥٥ (١/٦/١٩٥٤)، ص٨٥٩ ؛

(٦٠) ديميتريس بيكيونيس، «الطبيعة اليونانية»، Néa Estia ، العدد ٦٤٦،

٥٥ (١/٦/١٩٥٤)، ص٨٥٥ ؛

(٦١) نجد الصورة نفسها لبحرٍ مغلق لدى إيلياس فينيزيس، «في البحار اليونانية. البحر الإيوني والإيجي روائياً»، أستيا، أثينا، ١٩٧٣، ص١٣٤ ؛

(٦٢) ستراتيس ميريفيليس، «بحر يوناني»، مجلة Elliniki Dimiourgia ، العدد ١٠٧، خاص بالبحر، ١٠، ١٩٥٢، ص٢٣–٢٤ ؛

(٦٣) إيلياس فينيزيس، «في البحار اليونانية»، المرجع المذكور، ص١٣٤ ؛

(٦٤) ستراتيس ميريفيليس، «أصوات البحر». في «رِكاب»، أستيا، أثينا، من دون تاريخ، ص٤٩–٥١ ؛

(٦٥) ستراتيس ميريفيليس، «الكتاب الأزرق»، بيرسوس، أثينا، ١٩٤٠، ص١٦–١٧ ؛

(٦٦) إيلياس فينيزيس، «الروحية البحرية لبحر إيجه. رحلة إلى أسطورة مارِق»، Néa Estia ، العدد ٦٢٦، ج٥٤ (١ آب/أغسطس ١٩٥٣)، ص١٠٨٤–١٠٨٨ ؛

(٦٧) إيلياس فينيزيس، «بعد ظهرٍ لبحر إيجه»، المرجع المذكور، ص٢٩ ؛

(٦٨) إيلياس فينيزيس، «في البحار اليونانية»، أستيا، أثينا، ١٩٧٣، ص١٣٥ ؛

(٦٩) راجع مقالة إم. بانايوتوبولوس في مجلة Néa Estia ، «خطاب أدبي وأسفار»، I ، العدد ٥٤١، ٤٧ (١٥/١/١٩٥٠)، ص٩٨–١٠٣ ؛

(٧٠) كليون باراخوس، «متوسّط»، فيكسيس، أثينا، ١٩٦٢، ص١٠٠ ؛

(٧١) جورج تيوتوكاس، «رحلة إلى الشرق الأوسط وإلى جبل آتوس، أستيا، أثينا، ١٩٩٥ [٣] ؛

(٧٢) جورج تيوتوكاس، المرجع المذكور، ص٢١ ؛

(٧٣) ا.م. بانايوتوبولوس، «جُعْلٌ مقدّس I. M. مصر»، إيكاروس، أثينا، ١٩٥٠، ص٥٩ ؛

(٧٤) أنظر، على سبيل المثال، رواية «محيط» لإيلياس فينيزيس، أستيا، أثينا،

١٩٥٦، ص١٤٢–١٥١ ؛

(٧٥) أنظر مثلاً النصّ في أدب الرحلات «مدن وبحار»، للكاتب والناقد بيتروس هاريس الذي كتب في العام ١٩٥٥، ونشر في مجلة Néa Estia ، العدد ٦٦٨، ٥٧ (١/٥/١٩٥٥)، ص٦١١–٦٢٢ ؛

(٧٦) أنظر مثلاً قصيدة «رواية ٨»، ١٩٣٥، وقصيدة «البيت بجوار البحر»، من مجموعة Kihli ، ١٩٤٧، المنشورتين ضمن «قصائد ١٩٢٤–١٩٤٦»، أثينا، ١٩٥٠، ص٥٨–٥٩ و٢٢٣–٢٢٤ ؛

(٧٧) أنظر للفائدة قصيدة «ستراتيس تالاسينوس عند البحر الميت»، التي كتبت في تموز/يوليو ١٩٤٢ ونشرت في مجموعة Kihli في العام ١٩٤٧ ؛

(٧٨) أوديسياس أليتيس، «البحار الصغير»، إيكاروس، أثينا، ١٩٧٠. الشواهد هنا من طبعة العام ١٩٨٥، ص١٠٣–١٠٩ ؛

(٧٩) ماري نويل بورغيه، «في المتوسّط»، ضمنَ «الاختراع العلمي للمتوسّط. مصر، موريا، الجزائر»، بإشراف ماري نويل بورغيه، برنار لوبوتي، دانيال نوردمان، مارولا سيناريليس، منشورات معهد الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية، باريس، ١٩٩٧، ص٧–٢٨ ؛

(٨٠) صحيفة Avghi ، العدد ٢٨،٧٨ حزيران/يونيو ١٩٩٨ ؛

تاكيس تيودوروبولوس

تخوم البحر الداخلي

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

إنّ الروابط التي تربط البحر بالأساطير اليونانية تقوم على سوء فهم. سوء فهم يدعى عوليس، أي أحد الوجوه التي تتردّد بإلحاح في حضارتنا. إنّه رجل متعطّش للمغامرات، ومستعدّ دائماً لخوض التجارب الجديدة التي تتيحها له الحياة؛ مقبل، دونما تردّد، على استخدام ما بجعبته من مراسٍ وحيلة لاستكشاف العالم الشاسع الأمداء على نحوٍ أفضل. وكلّما كان العالم مجهولاً بالنسبة له ازداد سعيه لاكتشاف حقيقة كنهه.

ولعلّ الصيغة الأكمل لهذه الأسطورة، تطالعنا لدى قسطنطين كافافي، شاعر الإسكندرية، في قصيدته إيثاكا. ففي العمقِ، تشكّل هذه الرغبة المعلنة في أن تكون «الطريق طويلة» من أجل «بلوغ إيثاكا»، جوهر حياةٍ بأكملها : ذلك أن القوة التي تبعدكَ عن غايتك هي التي تضفي عليها، في الوقت نفسه، قيمتها. لذلك فإنّ «صباحات الصيف» وكلّ «الروائح المسكرة» للرحلة تلك هي التي تسبغُ قيمةً ما على إيثاكا الصغيرة القليلة الشأن في النهاية. ومثل هذا التفكير يردّد أصداء المبدأ التراجيدي القديم الذي يقول إن علّةً واحدةً وحيدة هي التي، في وقتٍ معاً، تجعل الحياة غير صالحة للعيش وتمنحها كلّ ما فيها من معنى.

علامَ يقوم سوء الفهم هذا ؟ والجواب على وجه الدقّة، هو أنه يقوم على ما تمثّله هذه الصيغة من افتراقٍ عن صيغتها القديمة، أي عن عوليس هوميروس وإيثاكا خاصّته. لأنّ ذاك اليوناني الماكر والذي كان على الفتيان الأثينيين جميعاً أن يحفظوا مغامراته عن ظهر قلب، لم يكن شغوفاً بالمغامرة. ولم تكن رحلته الأسطورية سوى شَرَكٍ أوقعه فيه القدر – القدرُ الذي كان، في حالته تلك، يتماهى مع الأفق البحري.

أمّا هو فلم تكن لديه أدنى رغبة في السفر، شأنه في ذلك شأن ذلك البطل الهوميروسي الآخر، آخيل، الذي سيرتدي زيّ امرأة ويلوذ

بجزيرة سيروس متخفياً لكي ينجو من التجنيد. لم تكن لدى عوليس أي رغبةٍ في الاختلاط بمجهولين، كما لم يبدِ، على الأرجح، أية حماسة لاكتشاف ما قد تكون عليه «عادات ذلك العدد الكبير من البشر» الذين ستضطرّه الظروف إلى لقائهم والتعرّف بهم. ولعلّه كان يفضّل ألف مرّة البقاء في مملكة إيثاكا الفقيرة التي يعرفها.

فقد يكون المرء واسع الحيلة ومع ذلك يؤثر البقاء في بلده.

الجميع يعلم الأسباب التي حثّته على الرحيل. وسواء كان غرضه الذود عن شرف ميليناس المجروح أو إرضاء طموحات أغاممنون، يجد عوليس نفسه منضوياً في صفوف الآخيين في حرب طروادة التي لا تنتهي والتي كان الغرض منها إعادة هيلانة، الجمال المسروق، إلى وادي أوروتاس. طبعاً لا يسعنا التنكّر لحقيقة أن وراء هذه القيم المعلنة تكمن دسائس أرباب الأولمب الغريبي الأطوار، ولكن ثمة أمر مؤكّد : وهو أن اليونانيين يذهبون لخوض الحرب في طروادة في سبيل قضية شرفٍ وجمال. وحتّى لو برهنوا، بعد ذلك، عن عدم اكتراثهم بهاتين القيمتين، فإنّ صنيعهم هذا، كان، إن لم أكن مخطئاً، سابقةً في التاريخ حيث الجمال يكتسب من الحظوة ما يجعله سبباً يموت الإنسان لأجله، وسبباً يودي بحياة أعدادٍ كبيرة من الأبطال.

يضحي هكتور وآخيل بحياتهما في سبيل حُسنِ هيلانة، ويصنيعهما هذا يقدّمون هذا الجمال هديةً لعالم الفانين.

والحال أنّ لا شأنَ لعوليس في كلّ هذا. والظاهر أنه لا يفقه شيئاً لا من الجمال ولا من أي شيءٍ من هذا القبيل. إنه ينصرف إلى بناء حصان طروادة، ويساعد اليونانيين على فتح المدينة ويعين ذلك الفاشل ميليناس على استرداد امرأته، ثمّ يعود من حيث أتى.

أثناء هذه الرحلة، سوف يضطرّ إلى ملاحظة بعض الأمور، ومن ثمّ تدوينها، كما سيضطرّ إلى لقاء عددٍ كبير من النساء الحسناوات، وأن يخوض عدداً من التجارب ويختزنها، ما سيفضي به إلى مملكة

الموتى – أي أنه سيتخطّى طبيعته كإنسانٍ فانٍ، باعتبار أن هبوط البشر إلى عالم هاديس لا يمكن إلاّ أن يكون رحلةً من دون عودة.

قد يخلص وعينا الحديث إلى الاستنتاج بأنها، في حاله هذه، سانحةً لأن يكتشف نفسه بنفسه.

والحال أنّ هنا يبدأ سوء الفهم. ذلك أن عوليس لم يفقد ما يبرّر حاجته إلى اكتشاف نفسه بنفسه. فمثلُهُ ليس مثَل أوديب الذي، بعد أن حلّ، ببراعة فائقة، لغزَ السفنكس الذي وراءه يحتجب الكائن البشري، وبعد أن اعتلى عرش طيبه، ما عاد مدركاً إلى أين أفضى به ذلك. ولأنّ المرء، أخيراً، إذ يبلغ الخمسين من عمره – وهي السنّ التي لا بدّ أنه بلغها عندما اندلعت مأساة طيبه – لا يحتاج إلى كامل قواه العقلية لكي لا يختلط عليه أمر المرأة التي ضاجعها أو هوية الرجل الذي قتله أثناء شِجارٍ محتدم. فمقارنة بأوديب هذا، يبدو لي عوليس رجلاً على قدرٍ كبير من الرصانة.

إنّه يعلم من يكون : إنه عوليس، ملك إيثاكا، ابن لاييرت وأنتيكليس، وزوج بينيلوب، ووالد تيليماك وسيّد أوميه. وهو يعلم أيضاً ماذا يريد. إنه لا يريد أن يكون إلاّ ما هو عليه فعلاً. يريد أن يعود إلى دياره. إذ لا تعنيه كل الليستريغون والسيكلوب والكاليبسو أو السيرين والسيرسي والنوزيكا. وما شأنه هو بثمار اللوتس، ما دام مالكاً لجذوع أشجار الزيتون التي تتيح له التعرّف إلى إيثاكاه؛ وما شأنه هو بأولئك النساء جميعهنّ ما دامت بينيلوب في انتظاره ؟

لا أدري لِمَ يحدوني الميل إلى وصف هذا السلوك بأنه «متوسطي». وليس ذلك، بأية حال، لمعايير جغرافية بحتة. بل الأحرى لدوافع أخرى، أشدّ صميمية، مرتبطة بالمتخيّل، المتخيّل الذي استطاع، منذ أزمنة سحيقة، أن يجعل صفحة المتوسّط الزرقاء مضماراً محفوظاً للمرئي، للمعروفِ وللأليف. كأنّ العين التي لم تكتشفَ هذا البحر من قبل، تعرفه جيداً حتّى قبل أن تراه. أما

بالنسبة لليونانيين فكان مضمار اللامرئي يبدأ مما وراء تخومه، مما وراء أعمدة هرقل، في منطقة المحيط.

في المتوسّط لا يكتب للمجهول ازدهار. المعروفُ هو الذي يطالعكَ فيه، محتجباً طيَّ النور، قابلاً لأن يُكتَشَف.

تحضرني تلك الرحلة الأخرى إلى المتوسّط التي قام بها، قبل أن تندلع الثورة اليونانية بعام واحد، في القرن التاسع عشر، ملاحان فرنسيان، كانا لا يزالان عندها في مطلع شبابهما، هما دومان دورفيل (Dumont d'Urville) وفوتييه (Voutier). وكان الأوّل تلميذاً ضابطاً، والآخر ملازماً بحرياً، وكانت بارجتهما، المدعوة إستافيت (Estafette) قد رست في مرفأ ميلو (Milo) – وهو مرسىً على طريق إزمير في ذلك الوقت –، عندما اكتشف أحد فلاّحي الجزيرة، ويدعى يورغوس (Yorgos)، في حقلِه، ويمحض المصادفة، تمثالاً سيصبح عَلَماً يستقطب الأضواء في تاريخ الفنّ. وأقصد بذلك تمثال «فينوس ميلو».

وإذا بهذين الملاّحين الغافلين عن كلّ شيء يلتقيان الجمال المطلق.

غير أنهما لم يكتشفا إلاّ ما كانا يعرفانه جيداً. لقد التقيا ذلك الشيء الذي كانا يعلمان، مسبقاً، حتّى قبل أن يلمحاه، بأنه يطابق مثال الجمال الذي يحملانه في أعماقهما. وقد تكون تتمّة الحكاية هي التي تحمل المزيد من التشويق. فعندئذٍ قصد البحّاران القسطنطينية حيث أقنعا السكرتير الأول في السفارة الفرنسية هناك، السيّد دو مارسيلوس (de Marcellus) أن يتبعهما ومعه المال، ثمّ، بعد أن ابتاعا التمثال من وجهاء الجزيرة، حملاه متنقلين به في أرجاء المتوسّط، من إزمير إلى الإسكندرية، حيث عرضاه من ميناء إلى ميناء، قبل أن يسلماه إلى لويس الثامن عشر.

وعندما يقوم رحّالة آخر، مفتوناً بتلك الأماكن، وهو الذائع الصيت فرنسوا رينه دو شاتوبريان، برحلته إلى المتوسّط – في

الرحلة من باريس إلى القدس –، فهو إنما يفعل لغرض العثور على المعروف، العثور على تلك الأشياء التي يعرف كيف يجدها مسبقاً، أو، في الأقل، يتوقّع أن يجدها. دائماً يحضرني ذلك المشهد على مقربةٍ من إسبرطة، حيث من قمّة هضبة ميسترا، تلوح له خرائب نائية في قعر الوادي، فإذا به وقد أيقن أنها ضريح ليونيداس، يهمز فرسه صائحاً باسم الملك الذي سقط في معركة التيرموفيليس منذ قرون خلت. ولمّا لم يسمع جواباً، يخلي مقدّمَ المشهد مغيظاً.

إن لم يكن ذاك حقيقة، فهو (في الأقلّ) لُقية حسنة.

رحّالة آخر، يدعى شليمان (Schliemann)، زار مناطقنا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قِيضَ له أن يكون أوفر حظاً. فهو لم يكتفِ باكتشاف طروادة في سياق حفرياته في هيسارليك، بل اعتقد، في موكينيا، خمسَ مراتٍ متتالية، بأنه عثر على جثمان أغاممنون عند اكتشافه للأضرحة الملكية الذائعة الصيت في باحة القصر.

إنّ حكاية شليمان، على هذا الصعيد، هي الحكاية المتوسطية النموذجية. فهو ذا رجل الأعمال الألماني الذي سيضطلع بالدور الأول في الحقبة الرومنطيقية للأركيولوجيا، والذي «يهبط» باتجاه البحر لكي يبرهن على الوجود الفعلي لهذا العالم الهوميروسي الذي كانت الأوساط الأكاديمية تقول، آنذاك، إنه مجرّد رؤية ذهنية وليدة عبقرية شعرية. ولم يتوانَ المنظر الطبيعي عن توفير ما كانت مخيّلته قد تصوّرته مسبقاً.

في المتوسّط، لا أحد يسعى لاكتشاف ذاته. فالجميع يعرفون ذواتهم قبل أن «يهبطوا» إليه، ولا يأتون إليه إلاّ لكي يلتقوا ما يعلمون مسبقاً أنهم واجدون فيه، من دون أن يكونوا قد رأوه من قبل.

لم يكن، في يومٍ، هذا البحر مجهولاً.

لم يكتشفه أحد. ولم يحثّ أيٌّ مستكشفٍ ذات يوم. لطالما كان قريباً ومعروفاً ومألوفاً.

هنا لم يكن المكان يوماً عرضةً لفضول القبطان آشاب. فموبي ديك، الحوت الأبيض، وذاك الجزء المجهول من البحر، ينتمي إلى المحيط، إلى قيعان تلك الأمداء الشاسعة التي لا تحدّها حدود.

المتوسّط صنعته التخوم.

قد يقال إنّ البحر الذي أصفه يبدو بحراً يونانياً، وأنني إذا التفتّ قليلاً إلى أسفل، إذا التفتّ إلى التوراة أو العرب، فسوف يتغيّر المشهد كلياً. من دون شكّ. غير أن هذا لأنّ كلاً منا يحمل في داخله متوسطه الخاص. هناك متوسّط يوناني، كما هناك متوسّط للبنادقة كما للرومان، وهناك متوسّط معركة ليبانت، المتوسط العربي العظيم، ومتوسط حملة نابوليون، ومتوسّط اليهود المكبوت، ومتوسّط موسوليني الذي لم يحدث، ومتوسّط فاليري الشعري، ومتوسط لورد بايرون الرومنطيقي، ومتوسّط وينكلمان الكلاسيكي، وهناك المتوسط الآخر، متوسّط طنجة، ومتوسّط البيتنيكس الذين حاولوا أن يحطموا فيه زمن الحياة.

والهويّات ؟ المتوسط مكتظّ بها. على ضفافه نعثر على هوياتٍ عرقية، ولغوية، ودينية وقومية وثقافية وتاريخية، وكلّ ما نشتهي من الهويات. فكلّ منا يعرف ذاته ولا يتوانى عن إسقاط ذاته على زرقة هذه المياه لكي يكتشف أنّ لا وجودَ لذات نفسٍ واحدة. بل هناك كثير منها.

على هذا النحو تقريباً أفهم عبارة كامو الشهيرة : «المتوسّط له عنصره التراجيدي الشمسي». نورُه تراجيديّ لأنّ نوره يتكشّف عن تعدّده الباطنيّ، وتعارضات شفافيته الخاصّة، والظلام الذي يساكن نوره كما حدود صميميّته.

ولنا، نحن المعاصرين، رعايا الحضارة العالمية المتحضرين كثيراً – ذلك أننا برغم كوننا متوسطيين، فإننا ننتمي إلى هذه الحضارة العالمية –، هذا الظلام هو الماضي. طبعاً كلّ منا يحمل ماضيه في داخله، غير أنّ هذا، على أهميته، لا يُعتدّ به. ما يعتدّ به هو أننا نتشارك جميعاً في هذا الماضي، في حقيقته والتوترات التي يولدها حضوره فيما بيننا.

الأطلال هي جزء من المصادفات الأشدّ فتنةً والأكثر تمييزاً للمنظر المتوسطي الطبيعي : إنها حضوراتٌ للحياة الراهنة. إنها على مقربة منا، نشاهدها، ونستطيع لمسها، ومثل هذا الشعور يتخطّى، بخفّةٍ، قيمتها التاريخية أو الأركيولوجية، مهما كانت. فالمتوسّط ماذا عساه يكون لولا هذه الحضورات، لولا الأهرامات، أو آثار ديلوس، أو سيجيستا أو قرطاجة أو دوغا، لولا معمار القديسة صوفيا أو سنان في استانبول ؟ وهل كنّا لنجرؤ على الكلام عن متوسّطٍ ما لو لم توجد تلك الغضون المرتسمة على محيّا الحياة الحديثة، المحفورة في الرخام والغرانيت والفُلَيس، تلك الكتابات الهيروغليفية التي تشرع المتخيّل وأفقه ؟

يعنيني حضورها أكثر مما تعنيني كلّ الأخبار التي تنقلها لنا حول هذا الماوراء المخبوء تحت أشناتها أو في جوفها. إنها هنا لكي تؤشّر إلى معالم حركة، إنها هنا لكي تقولبَ توترات التمايز.

إنها هنا لكي ترسم حدودها الخاصّة، الحدود الداخلية لحاضرنا.

كان أوّل من تمثّله، قبل بحرنا (Mare nostrum) بزمنٍ بعيدٍ، هو هيرودوتس المولود في هاليكارناسيوس. والحقّ أنه يشير إليه بوصفه «بحرنا» في التمهيد لـ «أخباره»، حيث يصف الحادثة التي بحسبه كانت هي سبب النزاع بين اليونانيين والبرابرة : اختطاف إيو، إبنة إيناخوس، ملك آرغوس، على يد تجارٍ فينيقيين.

أتخيّل المؤرخ سارداً أخباره غير المعقولة في ساحة أثينا

العامّة، بتلك اللهجة الإيونية التي تميل إلى استبدال الألف هاء. في الحقبة ذاتها كانت المدينة في حال غليان. على الهضبة المقدّسة تجري أعمال تشييد البارتينون؛ وأوريبيدس يحدوه الأمل في أن يجاور، ذات يوم، مجدَ آشيل وسوفوكليس الذي يكاد أن يكون معاصره، فيما الإصلاحات الديموقراطية الموروثة عن كليستينس لا تصمد أمام المؤسسات المتقدّمة على الدوام التي ينشئها ذاك السياسي الطموح الذي يدعى بيركليس.

نحن تقريباً في منتصف القرن الخامس : إنّ التحالف الأثيني يشمل مدناً تابعة على ضفاف هذا البحر الذي هو بحره (بحر التحالف)، ويسيطر على الحوض الشرقي للمتوسّط كلّه، لا بل يتخطّى حدود هذا الحوض؛ في أثينا، يقول أناكساغوراس أن الذهن البشري قادر على تأويل الكون، وهيرودوتس يسرد أخباره «لكي لا تسقط مآثر اليونانيين والبرابرة طيَّ النسيان».

ويسهم، هو أيضاً، في مجالات التجديد في زمانه. فمن خلال تدوينه «أخباره»، يمهّد للفكر الإنساني سبلَ عالمٍ جديد : عالم هذا الزمان الذي يتخطّى الحياة البشرية، لكنّه ليس صنيع الآلهة أو الخلود. إنه صنيع البشر، «صنيع من سيأتون»، الذين سيدعو بيركليس، بعد ذلك بأعوامٍ، في رثائه، إلى امتداحهم للتكفير عن موت الأثينيين الذين سقطوا في القتال خلال العام الأول من حرب البيليبونيز.

الحال أن هيرودوتس، إلى زمن التاريخ، يكتشف أيضاً شخصيّات المأساة، أو الأحرى، لكي نستخدم مصطلحات القرن الخامس قبل الميلاد والتي لا تختلف عن تلك التي نستخدمها اليوم، شخصيّات التراجيديا. ذلك أنه كما في مسرحيات سوفوكليس الجميع على حقّ، كريون وأنتيغون، كذلك الأمر في أخبار هيرودوتس، البرابرة، كما اليونانيون، على حقّ. فالطرفان يتقاسمان الوزر نفسه، ذاك الذي يفرضه الجانب الإلهي من الوجود، وهو وزر الحسد والعنف.

لا جدوى من تكرارنا هنا أنّ مصطلح برابرة لدى هيرودوتس لا يحتمل أي معنى انتقاص، وأنه يسمّي واقعاً بشرياً للإشارة إلى ما هو ليس يونانياً. لذا ينبغي الاعتراف بأنه درس متميّز في التسامح من قبل مؤلفنا الرحّالة أن يذهب إلى المقلب الآخر من «بحرنا»، إلى ما وراء التخوم التي يرسمها على طول الأفق، لكي يعاين كيف يعيش الناس هناك، وما هي عاداتهم ولغاتهم، وبأيّ آلهة يؤمنون. وأحسب أن مثل هذا الفضول يدين بالكثير للألفة المتوسطية، الفضول الذي يثير فيك الرغبة في التعرّف إلى وجه «الآخر» – حتّى لو كان هذا «الآخر» هو عدوك.

ربّما لا يكون هذا الفضول غريباً عن الاحترام العميق الذي تثيره في الفكر اليوناني مملكة الإله بوزيدون (Poseidon). ذلك أن السطح الأزرق لمياه المتوسّط ما زال يمتلك تلك الصفة الإلهية : فهو إذ يعكس لك وجه «الآخر»، إنما يظهر لك أن هذا الوجه لا يختلف البتّة عن وجهك. والبحر نفسه يغدو بذلك، وبما يتجاوز اللغات والأعراف والعادات، الحافز الحقّ لوجودٍ يتخطّى حدودك الخاصّة.

وعندما صاح المرتزقة الناجون من جيش العشرة آلاف بعبارتهم الذائعة «البحر ! البحر !»، التي نقلها كزينوفون (Xenophon) في مؤلفه «آنابان»، ألم يكن لصيحتهم هذا المعنى بالذات – بصرف النظر عن حقيقة أنّ الجنود حين رأوا الأفق البحري أدركوا أنهم بلغوا مناطقَ يعرفونها ويألفونها ؟ وليس مهمّاً على الإطلاق ما هي هذه المناطق، وليس مهماً إذا كان البحر الذي يرونه قبالتهم ليس هو «بحرنا»، بل البحر المضياف (البحر الأسود). وعليه نكون أمام وجهةٍ معاكسة تماماً للوجهة التي سلكها مستكشفو المحيط الكبار. فقد كان هؤلاء يبحثون عن اليابسة لا عن البحر.

المتوسّط – فهذا هو الإسم الذي يطلقه آنج فلاشوس (Ange Vlachos) باليونانية الحديثة على ما أسماه هيرودوتس «بحرنا» – كان في متخيّل اليونانيين المرآة التي يتعرّفون فيها

على أنفسهم. ولهذا السبب ما كانوا يقيمون مستعمراتهم، إلاّ فيما ندر، على بعدٍ يزيد على الثلاثين كيلومتراً عن الساحل. أي أنهم مهما أوغلوا في الابتعاد عن وطنهم الأمّ، فإنهم ما كانوا ليبتعدوا عن الضفاف.

كانوا يريدون أن يروا البحر. والبحر، «بحرنا»، كانَ حدود عالمهم. وبعده، بعد أعمدة هرقل، يبدأ الماوراء، اللاشيء، ما «لا يستحقّ الذكر»، مملكة «اللامكان». ولم يكن اليونانيون معنيين بالماوراء. كانوا يريدون أن يكون كلّ شيء بمستوى «بحرنا»، بما في ذلك الأتلنتيد، تلك اليوتوبيا بامتياز : إذ كان ينبغي أن تكون مغمورةً بالمياه هناك، بقرب جزيرة ثيرا، لكي يتسنّى لهم أن يروها من كثبانهم البحرية.

كان عالمهم، كونهم، يبدأ وينتهي هناك، عند تخوم هذا البحر، ليشمل كلّ ما تدركه حواسّهم وكلّ ما تعقله أذهانهم.

غير أنّ المرء لا يلامس تخوم عالم البشر من دون أن يمسّ الجانب الإلهي من الوجود. وخطأ الملك العظيم أحشويرش أنه لم يدرك هذا الأمر. ربّما لأنّ آلهته هو مجرّدةٌ من الشكل. أو ربّما لأنه، هو نفسه، يُماهي البحر بخصومه اليونانيين. حتّى هو كان يرى أن البحر هو موطنهم. ولهذا يقيّده بالأغلال ويسوطه بسوطه عندما يلتقيه للمرة الأولى في البوسفور. فهل يسعى للاقتصاص منه على ما أوقعه بوالده داريوس يومَ ابتلع أسطوله قبالة جبل آتوس ؟ أم أنه يسعى لأن يُظهر لليونانيين بأنّه قادر على تقييد كونهم كيفما شاء، وعلى تأديبه كما يؤدّب العصاة من رعاياه ؟

سواء كان هذا أو ذاك، فإنّ صنيعه هو جريمة تغضب الإله. ويسرد هيرودوتس الذي ندين له بهذه الرواية، الحادثة من دون سخرية أو تعالٍ، بل على الضدّ من ذلك، يأخذه على محمل الجدّ، وينتهز المناسبة للتذكير بالأقوال الحكيمة لمستشار الملك الأعظم، الذي يحاول أن يقنع أحشويرش بالتخلّي عن حملته لأنه يخشى،

«ألاّ يحيط به بحر، وألاّ تتسع له يابسة». وأي غلوٍّ قد يستخفّ بكائن بشريّ يفوق الرغبة في الكِبَرِ حتّى «لا يحيط به بحر، ولا تتسع له يابسة» ؟

نعلم عواقب جريمة أحشويرش. فسوف يبتلع البحر خططه. إذ يهلك قسم من أسطوله جرّاء إعصارٍ قبالة رأس أرتيميسيون، حيث سيلقى الملك هزيمته الأولى. ثمّ تعقب الإعصار معركة سلامينا. وسوف تسحق فلول جيشه أخيراً، ذات يومٍ، على أثر معركة بلاتيه، عند مضيق ميكالا بين جزيرة ساموس وآسيا الصغرى.

بمضيّ بضعة قرون يبدو أن البحر قد حافظ على قدراته الإلهية كاملةً. ففي «الفتيات الصغيرات والموت»، تحفة الكاتب ألكسندر باباديامنتيس، تتعرّض الشخصية الرئيسية، وتدعى فرانكويانّو، بعد قتلها أربع فتياتٍ صغيراتٍ لتجنبهنّ تلك الحياة البائسة والمدقعة التي تنتظرهنّ على جزيرة سكياتوس، للغرق فيما تسعى للنجاةِ من مطاردة خفراء الصيد. ويحرص المؤلف على التوضيح بأنها تموت ضحيةَ عدالتين، عدالة البشر وعدالة الآلهة. وينبغي القول هنا إنّ باباديامنتيس كان مؤمناً، تقياً، وإنه كان يعشق الإنشاد ضمنَ خورس الكنيسة وإنّ لقبه الأدبي كان «راهب العالم».

بعد قرونٍ طويلة من التاريخ، كفّ «بحرنا» كما سمّاه هيرودوتس عن أن يكون بحر اليونانيين، إلاّ ربّما في فترة سيادة الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تشمل بلاد البلقان والشرق الأدنى الحالي باستثناء الأراضي اليونانية. لقد غدا المتوسّط «بحر» الرومان، ثمّ انتقل إلى سيطرة البنادقة والعرب والعثمانيين. غدا ساحةً لتحركات المشرقيين والصليبيين، والمكان الذي اختاره اليهود لتيهانهم إثر طردهم من أسبانيا. أما اليونانيون فقد كفّوا عن الالتفات إليه. تظاهروا بأنهم لا يرونه، وإن استمروا، حتّى أواسط القرن التاسع عشر، في العيش مبعثرين على طول حوضه الشرقي، من أثينا إلى القسطنطينية، أو إزمير أو الإسكندرية.

ربّما وجدتم أنني لا آتي بجديد. فالذائع عن اليونانيين أنهم لا يهتمون إلاّ بأنفسهم. حتّى لو قابلتموهم بالعالم أجمع، فإنّهم لن يتحدثوا إلاّ عن ذات أنفسهم. والحال أنه إذا كانت ذات النفس هذه، إذا كان الأنا اليوناني هذا، ينبعث مجدداً على ساحة العالم الحديث، فإنه لا يدين للمتوسّط بذلك، بل للغرب الذائع، للنهضة، للكاربوناريين (أنصار حركة الفحّامين)، أو لجيوش نابوليون التي ينتظرها الجنرال تيودور كولوكوترونيس. إنّه يدين لكلّ أولئك المضللين، غير القابلين للإصلاح من الرومنطيقيين الإنكليز والفرنسيين والألمان الذين آمنوا بأنّه ما من تاريخٍ مهما بلغ من القذارة قد يلطّخ الأبيض الناصع، و«نزلوا» إلى بلادنا لكي يبرهنوا على صحّة ما يؤمنون به. إنه يدين لتلك المتاحف الضخمة التي ترسّخ دعائم أوروبا الحديثة، يدين لفيفان دونون (Vivant Denon) الذي يريد أن يجعل من اللوفر خاصّته ملاذاً تستردّ فيه كلّ هذه التحف الفنية المعنى الذي حرمت منه في مواقعها الطبيعية. ويدين به لروسيا والبلقان الأرثوذكسية – وإن كان علينا أن نقرّ بأنّ «النزعة البلقانية الجامعة» التي دعا إليها ريغاس فيليستينليس تتخطّى إطار الرعية الأرثوذكسية الخالصة.

إنّ «اليونان البيضاء» ليست مجرّد خدعةٍ سياسية استخدمها اليونانيون في معركة نافارين والغرض الوحيد منها إقناع حماتهم الغربيين «الحمقى» بأنهم يستحقون أن يُنجدوا. لا، فاليونان البيضاء محفورة في جيناتهم الوراثية، وهي جزء من تلك الطباع الوراثية التي يتوارثها اليونانيون من جيلٍ إلى جيل. وإلاّ كيف نفسّر موقف ذلك الجنرال الأمّي ماكريانيس الذي رأى نفراً من القرويين يساومون بضعةَ «فرنسوية» لبيعهم تمثالاً أثرياً قديماً ، فصاح بهم أنّهم بذلوا دماءهم في سبيل أشياء من هذا القبيل بالذات، فلا يحقّ لهم أن يبيعوها ؟ أو كيف يفسّر موقف اليونانيين خلال حصار الأكروبول الذين ما أن رأوا الجنود الأتراك يهدمون أعمدة البارتينون لكي يصنعوا من أجزائها المعدنية قذائفَ، حتّى فكوا الطوقَ الذي كانوا قد أقاموه ؟

لا أدري إذا كانت «اليونان البيضاء» محفورة حقاً في جيناتهم الوراثية، غير أن المؤكّد أنها محفورة في منظرهم الطبيعي. فلا أحد ينكر أن هذا الشعب المشاكس ذا التاريخ الغنيّ، أنّ هذه الأقوام التي حيّرت السلطنة العثمانية، كان من شأنها أن تلقى مصيراً مختلفاً ما لم تكن هذه الهياكل السامية ماثلة أمام أبصارها كلّ صباح.

حتّى الأشدّ أمية من بني البشر لن يلبث لا مبالياً إزاء منظر البارتينون. باستثناء ألاريك، ملك الويزيغوت، غليظ الطباع، الذي تملّكه الرعب لدى رؤيته فآثر أن يلتفّ حول أثينا. فالبارتينون لم يفقد هالته حتّى بعد أن أحاله موروسيني أطلالاً، وبعد أن نهبَ على يد اللورد ألجين (Elgin). كيف لأحدٍ أن يجده ماثلاً أمام ناظريه، على الدوام، هيكلاً رابضاً على قمّة هضبة، ثابتاً، متوحّداً، من دون أن يطيل التفكير والتمعّن محاولاً أن يفهم ما الذي يعنيه أو يمثّله ؟ إنه يسعى لأن يقول لنا شيئاً، هذا مؤكّد. وليس على المرء أن يكون شديد الفضول لكي يتبيّن ذلك. والحال أن اليونانيين فضوليون. فحين يكون المرء شغوفاً بمعرفة أتفه أسرار جيرانه، كيف يعقل أن يبقى لامبالياً حيال ألغاز تاريخه الخاص ؟

وشأنهم شأن الفضوليين جميعاً، قد يثير أهون الأمور إعجابهم : موكب باذخ، خُطَب الوداع، الأزياء الجميلة، وحتّى التوشّح بالمناديل. أو ما يفد من الخارج ولا يفهمونه. وما يثير إعجابهم أيضاً هو أنفسهم بالذات لأنهم تمكنوا من اجتذاب هذه الأعداد من الغربيين المرموقين الذين أتوا وجلبوا معهم عاداتهم الحسنة، ولغاتهم المنشدة وموسيقاهم الرفيعة ورقصاتهم الاحتفالية وحليّ شعورهم. المؤكّد أنه إذا كانت هذه القوى كلّها مصرّة على الالتفات إلى اليونان، فلا بدّ أن لها أسبابها الخاصّة التي تدفعها إلى ذلك. بلى، كلّ هذا يثير إعجاب اليونانيين وإن كان لا يخدعهم تماماً فيسخرون من القوى الحامية هذه، واصفينها بـ «الحمقاء»، مدركين تماماً أنها ليست أرقى حالاً ما دامَ من غير العسير عليهم أن يبيعوها بثمنٍ لا يستهان به – كما تقضي حرفة

التجارة – أناهم الذي يبالغون في تقديره.

غير أنّ الأمر لا يقتصر على ذلك. هناك أيضاً مسألة اللغة. فحتّى لو كان الفرق بين اليونانية الحديثة واليونانية القديمة مماثلاً للفرق بين البارتينون الحالي والصرح الذي شيّده بيركليس – أي حين لا يكون الأول سوى خرائب الأخير –، فإنّ هذا لا يحول دون أن تكون اللغة هي نفسها. ناهيكَ عن أن اللغة اليونانية الحديثة تمتلك ميزة أن تكون لغة حيّة. ولهذا السبب لا يجد اليونانيون اليوم أي صعوبة في الاستماع إلى أكثر مواطنيهم فصاحةً وهم يزاولون ميولهم الأتيكية وسط حشدٍ من الناس الذين يرطنون باليونانية الحديثة – إن لم ينطقوا بالألبانية، أو اليونانية المشرقية أو ذلك المزيج الملحن من اليونانية الإيطالية الذي يرطن به أهل الجزر الإيونية.

ثمّ هناك مسألة الأرثوذكسية. فبعد أن تملّصت بشقّ النفس من الملاذ الذي وفّرته لها الإمبراطورية البيزنطية، تطالب الكنيسة اليونانية بحظوتها في الحياة الروحية لشعبٍ يدين لها بالكثير – يدين لها ببقائه حتّى. فمن غير الممكن إذاً، أن تدعه يلتفت إلى هذا الغرب الذي يبقى كاثوليكياً أو بروتستنتياً، أي يبقى، بأية حالٍ، غير أرثوذكسي. ولهذا تنكفىء اليوم متحصّنةً بأشكالها شبه المتحجّرة. وكما قد يقول الكاتب إيمانويل رويديس، إنها تبذل ما بوسعها لكي تطبّق في القرن التاسع عشر المقرّرات التي اتخذت في مجمع نيقوميديا.

مما لا شكّ فيه أن العزلة اليونانية تعاني شُقاقاً. فهي تترجّح بين أوروبا ما بعد الثورة الفرنسية وبين هذا الشرق الذي يلتصق بجلدها؛ بين جنرالها الفلاح ماكريّانيس وبين تجارها الكوسموبوليتتين ؛ بين أساقفتها وبين أدامانتيوس كورايس عصر الأنوار ذاك ؛ بين مجتمع بقي على قيد الحياة بمتحداته العثمانية وبين كلّ الذين يتطلعون إلى بناء دولة حديثة. لقد استبدل «بحرنا» بحسب صياغة هيرودوتس بهذا «الشرق لنا» الذي

يتحدّث عنه مؤرّخ عَلَمٌ من طراز قسطنطين باباريغولوس والذي تمكّن من تحويل هوام اليونان الحديثة إلى نتاجٍ أدبي: «تاريخ الأمة اليونانية من العصور القديمة إلى أيامنا هذه».

إنّ سماعكم اليونانيين وهم يتحدّثون عن تلك الحقبة قد يوقف شعور رؤوسكم. إذ يبدو هؤلاء القوم قد فقدوا الرشدَ تماماً. فها هي المقاطعة البلقانية الصغيرة من الإمبراطورية العثمانية التي استطاعت أن تستردّ استقلالها بفضل نافارين، تحلم بنقل أنوار الغرب إلى الشرق. كما يتخيّل الشعب المشاكس الذي يحكمه أحد ملوك البافيير، بأنه سيبسط وجوده ويذهب لتحرير كلّ الشعوب اليونانية أينما وجدت. «من أجل هذه الفكرة العظيمة قاتلنا»، يصرّح، بكلّ جدية، في البرلمان اليوناني، رئيس الوزراء وزعيم الحزب «الفرنسي» جوانيس كوليتيس – وكان ذلك في العام ١٨٤٤، على ما أعتقد _، ردّاً على ماكريانيس وبالاميديس. وكان النقاش يدور حول مسألة مَنْ الذين يحقّ لهم أن يعيّنوا في الوظائف العامّة، وعمّا إذا كان هذا الأمر محصوراً باليونانيين المتحدرين من المناطق المحرّرة أم أنه يشمل كلّ اليونانيين مهما كانت المناطق التي ينتمون إليها. ومهما قيل، ويقال اليوم، بأن تلك المسألة كانت مسألة جوهرية على الصعيد السياسي، فإنّي، من جهتي، أقرّ بأنها ليست على قدر كبير من الأهمية. ولكنّ الفكرة، في حدّ ذاتها، فكرة عبقرية.

هذا الطراز من «الأفكار العظيمة» يحكم طبعاً على شعوبنا الصغيرة المقيمة حول المتوسّط بأن تؤدي أدواراً ثانوية في معترك التاريخ الحديث الكبير. والحال أنّ ما يعني اليونانيين هو الأدوار الرئيسية. والأدوار الرئيسية في التاريخ يضطلع بها الغرب، أو، في الأقلّ، ما يقع إلى الشرق أكثر قليلاً من اليونان. ولكن لحسن الحظ، وعلى الرغم من الشقاقات الداخلية المحتدمة، فإنّ اليونانيين أنفسهم لديهم الشعور المُطَمْئِن بأنهم يحتلّون مقدّمَ ساحتهم الخاصّة.

إذا كانوا لا يلتفتون باتجاه الجنوب، فليس ذلك لتواضعٍ منهم – فهم يدركون جيداً أنهم لا يمتلكون الإمكانات المطلوبة – بل بدافع الكبرياء. بلى، اليونانيون كانوا وما زالوا أصحاب كبرياء. وهو، بأية حال، أمر حسنٌ، لأنهم لولا الكبرياء الثقافي الملازم لطبعهم، لربّما ما كانوا اليوم موجودين.

ما أن تراءى لهم العالم الحديث، تماهوا بأدوار التاريخ الرئيسية. فهي الأدوار التي أرادوا أن يحاكوها.

المتوسّط الحالي، من حيث موقعه على كرة الحضارة العالمية الأولى في التاريخ، ليس في الحقيقة، سوى لغز. إنه لغز في نظر بيروقراطيي بروكسيل الذين يشعرون بأن من واجبهم مدّ يد العون لأهلهم في الجنوب، الفقراء على نحوٍ لا شفاء منه، والمشاكسين لأنهم كذلك. إنه لغز في نظر زعماء واشنطن الذين يذهلهم حجم المشكلات التي يتخبّط بها العالم الآخر. وهو لغز في نظر المتوسطيين أنفسهم الذين وإن كانوا يلتفتون إلى كلّ المزايا التي تنعم بها البشرية، يرفضون التخلّي عن اختلافهم.

ممَّ يتكوّن هذا الاختلاف ؟ أولاً، ذلك التعصّب الديني الذي لا خلاص منه، كذاك المتفشّي في الجزائر. ثمّ الشقاقات المتورّمة كتلك التي شهدتها يوغوسلافيا السابقة، والتي ما زالت تعاني منها منذ انهيار النظام الاشتراكي الذي أقامه تيتو. والتباينات الاقتصادية من قبيل تلك التي تفرّق بين إيطاليا الجنوب وإيطاليا الشمال. والتوترات على غرار تلك المستمرّة في بحر إيجه بين اليونان وتركيا والمسبّبة لفضيحة خطّ التماس الذي يقسم جزيرة قبرص. وهو، أخيراً، اختلاف مكوّن من مواجهات تتخطّى قدرات أبرع الدبلوماسيات وأشدّها نفوذاً، كتلك المواجهات المستمرّة في إسرائيل وفلسطين.

مما لا شكّ فيه، أنه من غير الممكن، من وجهة نظرٍ سياسية، الكلام على متوسّط واحد. وبهذا المعنى، لا صلة للجزائر ببلدان

جنوبِ الاتحاد الأوروبي. كما لا صلة للضفة الغربية من المتوسّط بضفتّه الشرقية حيث الحرب مقيمة في مسعى كلّ يوم.

ليس من شأن فكرة المتوسّط أن تشكّل برنامجاً سياسياً، كما أنها لا تشكّل إيديولوجية. لذلك فإننا إذا أردنا مقاربته من هذه الزاوية، نغامر حتماً، وفي أفضل الأحوال، بالاستغراق في فهمٍ للوجودِ مستلهمٍ من الدعاوى السياحية: نوعٌ من «النادي المتوسطي الثقافي»، أو «الرحلةُ السياحية في أرضِ الاختلاف» من شأنها، لسعادة بعض المتقاعدين الميسورين، أن تجري فوق مياه «الأزرق الكبير». ذلك أنه من العسير الكلام على المتوسّط إذا أغفلنا ذِكْرَ «الأزرق الكبير». فهو، على الأرجح، القاسم المشترك الوحيد، من حيث الهوية، الذي يمكن أن نجده فيه. فمن منا لم يسمع أو يقرأ عن «رابطة الأعراف» المتصلة، من دون شك، بالعادات الغذائية والمناخ والهوينى في إبداء ردّ الفعل؛ غير أن الجميع يعلم أن مثل هذا الخطاب قائم على الإغفال؛ على إغفال جوانب كثيرة من الواقع الذي يسعى للإحاطة به. ففي مجال الفكر، وعلى الضدّ مما هو حاصلٌ في مجال التصوير، لا تفضي بنا الانطباعية إلى ما يستحقّ الذكر؛ ثمّ أن من ينكبّ، على غرار انكباب الباحث في الإناسة، على حياته الخاصّة دارساً ممحّصاً، فإنّ الاحتمال الأغلب هو أنّه سيعمد إلى بترها وتشويهها.

لِمَ لا يصرّح أحدٌ بأنّ القاسم المشترك في المتوسّط كلّه هو دمامة تجمعاته السكنية الحديثة؟ من القاهرة إلى بيروت ما بعد الحرب، ومن أثينا إلى الضفاف المتوسطية من أسبانيا، ينتابنا الشعور قبالة هذه المدن المشيّدة من علب هائلة الحجم مرصوفةً على الأرض، بأننا حيال مدن شيّدت من قبل قبائل من الرُحَّل الذين سعوا ببساطة إلى امتلاك سقفٍ وأربعة جدران تظللهم.

أما بشأن ما تبقّى، فكلّ شيء مختلف. فلكونه مقسّماً بين شمالٍ وجنوب، بين شرق وغرب، ومنقسماً على صعيد السياسات والأديان، وبلا مركزٍ حقيقي – إلاّ إذا نظر إليه من بعيد، من بعض

مدن أوروبا الوسطى –، ليس المتوسّط واحداً. إنه متعدّد.

وإذا شئنا أن نحدّد «هوية متوسطية» ما، سوف نجد أنفسنا، كما هي الحال دائماً عندما تتعلّق المسألة بالهوية، مرغمين على البدء بعملية استبعاد. ولكن، هل يمكن النظر في المسألة إذا أغفلنا العالم اليوناني الروماني ؟ طبعاً لا. فمما لا شكّ فيه أنّ اليونان وروما، وكذلك، من قبلهما، مصر، تشكّل جوانبَ جوهرية من تاريخ المتوسّط. ومع ذلك هل يمكن أن نحصر في مساحةِ حوضه فقط حضارةً بأكملها أنجبت، ولو منذ آلاف السنين، بذور الحضارة العالمية الحالية، وقدّمت نموذجاً للحرية الفردية، والمجتمع المنفتح، والتنظيم السياسي الحديث ؟ فهل يمكننا القول إنّ شيشرون هو مؤلّف متوسطي ؟

أو حتّى كيف يمكن الكلام، بجدية، على التراث اليهودي العريق مع إغفال حقيقة أنه نشأ على ضفافه ؟ ولكن هل يمكن حصر هذا التراث ضمن حدود «هويته المتوسطية»؟ هل يمكن التأكيد حقاً أنّ المسيحية هي ظاهرة متوسطية، وإنْ كانت ولدت في المتوسّط الشرقي، ونطقت باليونانية والتصقت بمحيط «بحرنا» الروماني، لكي تبشّر بتعاليمها ؟ كيف يمكن القول حقاً إنّ النهضة الإيطالية كانت مجرّد ظاهرة متوسطية، وإن كانت قد نشأت على ضفافه الشمالية ؟

مما لا شكّ فيه أن المتوسّط، كهوية، يبدو أقلّ غنىً من تاريخه وانجازاته.

على الدوام يبقى حاضراً في خاطري المعلّم الكريتي دومينيكوس تيوتوكوبولوس، الملقّب «غريكو». لقد كان المسار الذي تبعه هذا الرجل من أكثر المسارات متوسطية. بعد أن هجر مسقط رأسه، كريت، درس في البندقية، قبل أن يحلّ في توليدو حيث مكّنته براعته من أن يغدو فناناً تشكيلياً كبيراً. وعلى الرغم من اعتياد بصره الضياء المتوسطي، فإنّ من يشاهد لوحاته يشعر

بأنه يبحث عن أمرٍ إضافي : ذلك النور الداخلي الذي ينبعث من لوحته الشهيرة «منظر لتوليدو»، والذي يضفي قوّةً على بورتريهاته ولوحاته الدينية. أليس من العبث بمكان القول إنّ غريكو هو مجرّد رسّامٍ متوسطي، أو بيكاسو – برغم لوحات ماعزه –، أو ماتيس، أو حتّى فان غوغ، برغم سماواته البروفانسية العاصفة ؟

كلّ هذا لا يؤدي، على ما أعتقد، إلاّ لترسيخ القناعة الثابتة لدى المتوسطيين كلّهم بأنّ المتوسّط غير موجود. فليس محض المصادفة أنه علينا أن نبحث طويلاً في الأدب اليوناني الحديث، وأن ننصرف إلى عمليات تطويعٍ ألسنية شاقة، لكي نعثر على وجود له؛ وعلى ما أعلم، الأمر مماثل في الأدب التركي. وكما أن اليونانيين لا يرون سوى بحر إيجه، وليس المتوسط، كذلك الأمر بالنسبة للإيطاليين الذين لا يرون، حين ينظرون، إلاّ جزيرتهم صقلية، وليس المساحات البحرية المترامية أبعد منها قليلاً.

لذلكَ لطالما تولّد لدي انطباعٌ بأن المتوسّط، عوض أن يكون كياناً، هو، بالنسبة لنا نحن المتوسطيين، ضرورة لوجودنا الحديث.

الآن وقد غدا حلم أحشويرش حقيقة، وبات العالم ينتسب إلى حكمٍ أحاديّ لا شكل له حيث تسود، من دون منازع، نسبية الأرقام وتقلبات الاستثمارات في البورصة، آلَ المتوسّط إلى الذوبان وما عاد يعني أي سياسة. وإذا كان ما زال يعني شيئاً فإنما ذلك لطاقاتِ آفاقه المتخيّلة أكثر منه لما هو عليه في واقعه.

لم يكن العوليس الهوميروسي يراه لأنه لم يكن يريد أن يراه. لم يكن بإمكانه أن يرتاب للحظة واحدة بأنّ «هذه الأعراف والعادات لدى الناس» التي كان يصادفها في طريقه ليست سوى تخوم المملكة العائدة لإله البحر الحاقد هذا، بوزيدون الغضوب. من جهته، كان هيرودوتس يكتفي بفكرة أن هذا البحر كان بحره. أمّا

بالنسبة لليونانيين الحديثين الذين سعوا، منذ اليوم الذي أدركوا فيه أنهم موجودون، إلى إدراج وجودهم هذا في عالم هوميروس وهيرودوتس، لم يكن المتوسّط سوى أفق جنوبهم ؛ وهو أفقٌ حقيقي طبعاً، لكنّه مسدودٌ، لأنه لا يجديهم شيئاً.

ففي انصرافهم إلى شقاقاتهم الداخلية، والتفاتهم فقط إلى بحر إيجه، بحرهم، مقيمين الحدّ الفاصل الكبير بين غرب تطلعاتهم السياسية وبين شرق جذورهم، بين عصر الأنوار وبين جيناتهم البيزنطية، بين الحداثة وبين الذكريات المتبقية من الإمبراطورية العثمانية، ما كان بمقدورهم إلاّ أن يغفلوا عنه.

ما كانوا في حاجةٍ إليه، ولذا ما كانوا يرونه. كانوا يعيشون فوقَ إحدى ضفافه، وكان ذلك يكفيهم. وعلى الرغم من تبعثرهم على طول حوضه الشرقي، من القسطنطينية إلى إزمير فالإسكندرية، لم يكن يوماً هذا البحر في نظرهم هو المتوسّط. أليفتيريوس فينيزيلوس نفسُه، السياسي المعروف، كان يتحدّث، في معرض شرحه لخطّته «التحريرية»، «عن يونان القارتين والبحور الخمسة». ففي ذهنه كان هناك بحر إيجه، والبحر الإيوني، وبحر كريت، وبحر ليبيا والبوسفور : تلك كانت البحور الخمسة في رؤيته السياسية – أما المتوسّط، في حدّ ذاته، فلم يكن موجوداً.

حتّى أكثر شعرائنا متوسطية، قسطنطين كافافي، هذا الرجل الذي استطاع أن يبني عالماً كاملاً انطلاقاً من العصر الإسكندري – وهو الحقبة الأكثر «متوسطية» في التاريخ اليوناني – ليست له أبصار لكي يراه، ولا كلمات لكي يصفه.

مما لا شكّ فيه أنني لا أحتاج، بصفتي يونانياً، إلى اللجوء إلى المتوسط لكي أمنح وجودي هويةً إضافية. ذلك أنّنا، في بلدي، لا تعوزنا الهويّات. أشعر بأنني يوناني بمقدار ما أشعر بأنني أوروبي، شرقي وغربي، وبلقاني ومتوسطي. إني مسربلٌ بالهويات المتنوّعة بحيث أني، في معظم الأحيان، يختلط عليّ الأمر، أنا نفسي، فأنسى

من أكون. ولأنني أشكّك حتّى الارتياب في كلّ خطابٍ يتعلّق بالهوية، أرفض الانضواء تحت أي إشكالية تفترض بأن المتوسّط هو هذا أو ذاك، لأنّ مثل هذا السلوك يؤدي، بصفةٍ عامة، إلى عزلِ وجهٍ من أوجه التاريخ، أو من واقعه، وجعله سمةً غالبة.

لهذا ربّما افتتنتُ، منذ بضع سنوات، بقراءة «منهل المتوسّط» لبريدراغ ماتفييفيتش (Predag Matvejevic). لأنّ المؤلف العزيز يقدّم المتوسط، في هذا الكتاب الأساسي، كمكان، كحقلٍ تجوبُ أرجاءه فكرةٌ لا تسعى، على غرار عوليس القديم، إلى استكشاف المجهول أو الغامض، بل تسعى إلى التعرّف بالمألوف والمفهوم.

قد لا يكون المتوسّط سياسة أو إيديولوجية، وقد لا يمثّل أي شارةٍ لهوية قابلة للحياةِ أو تستحقّ هذه التسمية، غير أن هذا لا يحول دون كونه مكاناً.

إنّه مكان، مجالٌ، مشهدٌ طبيعيّ، وخزّان أشكال معروفة تنبثق، مألوفةً وفي المتناول، وإنْ كنّا نعلم يقيناً أنها وافدةٌ من سحيق الزمان، في ذلك النور الذي وصفه ألبير كامو، ذات يوم، بأنه «تراجيدي». لِمَ هو تراجيدي ؟ لأنه يحمل في صلبِ شفافيته شقاقاته الخاصّة.

ما هي هذه الشقاقات ؟ إنها تلك التي تخضع لنا بهذا القدر من الوضوح المشهد الطبيعيّ المتوسّطي حيثما وُجِدَ – وعلى الرغم من أن الصديق بريدراغ ماتفييفيتش يعتبر أن هذا المشهد الطبيعي ينتهي حيث تنبت أول شجرة زيتون، فهو ينتهي، في مخيّلتي، حيث أرى آخر أعمدة المشهد منتصباً عارياً، انطلاقاً من بعلبك، في لبنان، وصولاً إلى فولوبيليس، في المغرب. إنه شقاق يترجّح بين النزعة الكونية لحضارةٍ لا تعترف لا بحدود ولا باختلافات وبين القيم الصميمة التي تتبنّى حقّها في أن يكون لها مزاجها الخاص، وأن تكون لها سقطات وجودها المتعدّدة.

كم وكم ردّدت قائلاً بأننا، نحن اليونانيين، قد تعبنا من كوننا

يونانيين، لشدّة تمسكنا – على ما يبدو – بهذه الألفيات من الذاكرة التي تحملها لغتنا، وبهذه الحظوة الثقيلة الوطأة التي ترزح تحتها رؤيتنا اليومية للبارتينون في أثينا الحديثة ؟ كم راودتنا الرغبة في التخفّف من هذا الحمل لكي نحظى، نحن أيضاً، بالخفّة التي يشعر بها مواطن الحضارة العالمية ؟ وكم شعرنا، في هذه اللحظة بالذات، بميلٍ معاكس، بضربٍ من غريزة البقاء التي تبقينا، لا على نحوٍ سلبي أو نوستالجي، متشبثين بما نحن عليه : الشعور الأعمق أيضاً، وهو ثمرة تجربة طويلة، بأننا لو فقدنا كلّ هذا، لو تخلّصنا منه كما نتخلّص من حملٍ لا جدوى منه، نفقد أنفسنا ونكفّ عن الوجود.

إنّ عبء هذا الشقاق لا صلة له بالماضي. إنه عبء راهن، على غرار آثار الماضي، سواء كانت مجيدة أو مهينة، عظيمةً أو قليلة الشأن، لكنّها، بأية حال، شواهد حضوراتٍ راهنة. المتوسّط منسوجٌ من تواريخ بدأت منذ قرون خلت، ولا يمكن أن تنتهي، تواريخ مرتبطة بوجودنا نحن. وبصفته مشهداً طبيعياً، يحمل هذا البحر بين جنباته مسألة هذا الشقاق بالذات. نحن نحتاج إلى المتوسّط كما نحتاج إلى شقاقاتنا وتخومنا.

أي أننا باختصار لن نتمكّن من الاستغناء عنه، لأنّنا، اليوم، في مطلع القرن الواحد والعشرين – وهو القرن الذي ينبغي له أن يكون شعرياً، بحسب عبارة صاغها أدغار موران مؤخراً، أو الذي سيكون روحانياً أو لا يكون، كما قال، قبله، أندريه مالرو –، في مطلع هذا القرن إذاً، وسواء عشنا في غمرة الشعر أو في غمرة الجانب الإلهي من الوجود (في غمرة الخلق إذاً)، نحن نعلم بأننا مضطرون لإعادة ابتكار شروط حريتنا، هذه الحرية التي ما عادت سياسة تقودها بعد اليوم. إنّ إعادة ابتكار تخوم هذا الشقاق الداخلي الذي يكمن بين طيّات المشهد المتوسطي، وفي غموض زرقته، تنتسب إلى التبعةِ الثمينة لهذه الضرورة بالذات.

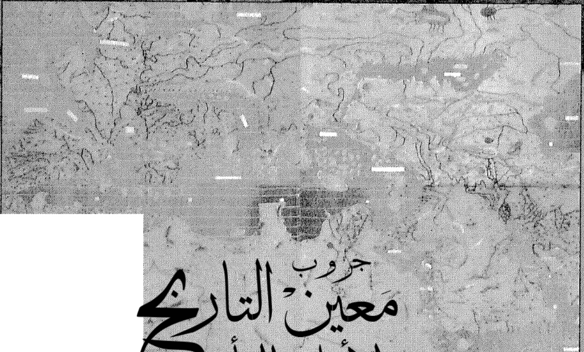
تصوّرات البحر الأبيض المتوسط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

عندما نتكلّم على المتوسط، لا نتكلم على الشيء نفسه إذا نظرنا إليه من إيطاليا أو أسبانيا أو اليونان أو فرنسا أو مصر أو لبنان أو المغرب... ذلك أن تصورات المتوسط بنيت في كلّ مكان من هذه الأمكنة على طبقات تاريخية وثقافية مختلفة. وكان الغرض من هذا العمل «تصوّرات البحر الأبيض المتوسط» هو استكشاف هذه الأنساب المتنوّعة لفكرة المتوسّط.

نصوص ليست سوى نتاج عمل عشرة باحثين وعشرة كتاب من المتوسط هي المغرب وتونس ومصر ولبنان وتركيا واليونان وإيطاليا وفرنسا وألمانيا مدة سنتين لاستكشاف متخيل هذه المنطقة، الخرائط الذهنية الماثلة، والأصداء التي يوقظها ذكر هذا البحر حيث تلتقي ثلاث قارات، وثلاثة أديان كبرى وتنوّع قلّ مثيله من اللغات والثقافات. المتوسط كبحيرة سلام، أو، على العكس، كأفق لمواجهة محتملة؟ مجال انفتاح أو حدّ انطواء؟ قيم مشتركة أم احتدامٌ للفروق؟ والتساؤل نفسه، من شأنه أن يثير الاهتمام أو الازدراء أو الحذر...

رانيا بوليكاندريوتي، باحثة في معهد الدراسات الهلينية الجديدة في المؤسسة الوطنية للبحث العلمي (اليونان).
تاكيس تيودوروبولوس له عدد من الروايات، من بين أحدث أعماله: «المنظر المطلق»، و«سقوط نرسيس»، نشرتا بالفرنسية في منشورات آكت سود في ١٩٩٢ و١٩٩٥.



ISBN: 9953-422-42-7

T H A L A S S A